د. محمد عمارة
رسالة التوحيد
للإمام محمد عبده
السلسلة الإسلامية
١

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

رسالة التوحيد

د . محمد عمارة

- الطبعة الثالثة أغسطس ٨٩ ١٩

- رقم الإيداع ٤٤٤٤/٨٩

الغلاف والإخراج الفني : محمود الهندي .

٤ش العلمين ـ ميدان الكيت كات ـ جيزة ـ

ت ٣٤٤٨٣٦٨


رسالة التوحيد

عن الأستاذ الإمام

هذه الصفحات القليلة ليست ترجمة تقليدية لحياة الإمام فقد وضعت لحياته العديد من الترجمات، على أسس متعددة ومتباينة من المناهج الخاصة بالترجمة لحياة العظماء والمفكرين والحكماء.

وبالرغم من أن لنا العديد من الملاحظات على بعض ما كتب عن حياته من تاريخ، إلا أن المقام الذى نحن فيه ليس مقام الترجمة المستفيضة لحياته الخصبة، لذلك نستبدل الترجمة له بمحاولة تقديم (بطاقة لحياته الفكرية والعملية) - إن جاز هذا التعبير - ففى سطور، شديدة الإيجاز، سنكثف أحداث حياته الفكرية والعملية، مبرزين أهم قسماتها، واضعين اليد على عوامل تكوين هذه القسمات، مشيرين إلى درجات التطور التى حدثت له فى المراحل التى مرت بها حياته. وفى كل ذلك فنحن نستفيد من كل ماقرأناه مما كتب عنه، وبالدرجة الأولى نحتكم الى أعماله الفكريه هو، بعد الجمع لها - وهو ما أنجزناه للمرة الأولى - وبعد التحقيق العلمى لنصوصها كى تتميز عن نصوص غيره - وهو ماحدث أيضاً للمرة الأولى(١) - وهما الأمران اللذان أتاحا لنا تصحيح العديد من تواريخ الأحداث الفكرية والعملية التى شهدتها حياته، والتى أخطأ فى كثير منها من كتبوا له وعنه بعض الترجمات.

أما صفحات هذه (البطاقه) فإنها تتسلسل مع تطور الحياة التى ترصد معالمها وقسماتها لتسجل مراحل هذا التطور، ولتقدم لنا عن هذه الحياة صفحات ست ...

---

(١) لقد جمعنا وحققنا ونشرنا هذه الأعمال ، وصدرت طبعتها عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - سنة ١٩٧٢م، ونفذت ،وطبعتها الثانية في الطريق - تصدر عن دار الشروق - .

ولد الشيخ (محمد عبده حسن خير الله) فى قرية (محلة نصر) بمركز (شبراخيت) من أعمال مديرية (محافظة) (البحيرة) فى سنة ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ)، فى أسرة تعتز بكثرة رجالها، ومقاومتهم لظلم الحكام، وتحملهم فى سبيل ذلك العديد من التضحيات: هجرة، وسجناً، وتشريداً، وموتاً، وضياع ثروة ... وهو يحكى عن هذا الأمر فيقول: انه قد سعى واش بأهلى (عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح، ويقف فى وجوه الحكام وأعوانهم عندتنفيذ المظالم، فأخذوا جميعاً، وزجوا فى السجون واحداً بعد واحد، ومن دخل منهم السجن لايخرج إلا ميتاً، وكان جدى(حسن)، شيخا بالبلدة، وهو الذى بقى من البيت مع ابن أخيه ابراهيم...)

● علمته هذه النشأة الاعتزاز بالمجد والأصالة، وعدم الربط بين هذه الأصالة وبين الغنى والثروة، والضن باحترامه على أهل الثراء، خصوصاً المسرفين منهم والعاطلين عن الكفاءة ، وأيضا الضن بهذا الاحترام على الحكام الظالمين. . ولقد لمس الأفغانى فيه هذا الخلق السامى فقال له: (قل لى بالله ... أى أبناء الملوك أنت؟!) . وقال عنه الخديوى عباس: (انه يدخل علىّ كأنه فرعون!).

● تلقى تعليمه الأولى للقراءة والكتابة، وحفظ القرآن، بالقرية، وبدأ ذلك وهو فى السابعة من عمره(٢) ... ثم ذهب الى (الجامع الأحمدى) بطنطا ليحضر هناك دروس تجويد القرآن الكريم فى سنة ١٨٦٢م (سنة١٣٧٩هـ) .

---

(٢) يخطئ الأستاذ العقاد في التأريخ لهذا الحدث في كتابه عن الإمام ، فجعله في العاشرة من عمره سنة ١٨٥٩م .

● بدأ فى سنة ١٨٦٤م (سنة ١٣٨١هـ) يتلقى أول دروسه الأزهرية فى (الجامع الأحمدى) ، بعد أن استكمل تجويد القرآن . . ولكن أساليب التدريس العقيمة قد صدته عن قبول الدروس، فقرر هجران الدراسة بعد عام من شروعه فيها، وعاد إلى القرية سنة ١٨٦٥م (سنة١٢٨٢هـ)، وتزوج ، وعزم على العمل بالزراعة مع أبيه وأخوته والانقطاع عن سلك التعليم.. ولكن والده رفض ذلك، وقرر إعادته الى (الجامع الأحمدى) فى نفس العام...

-٢-

فى هذه الفترة التقى بالشيخ درويش خضر ـ خال والده ـ وهو صوفي كان على اتصال بالزاوية السنوسية، فألقى اليه ببعض من حكمة التصوف، وقاده الى شىء من سلوك الصوفية، فعادت إليه الرغبة فى طلب العلم، وعاد الى (الجامع الأحمدى) سنة ١٨٦٥(سنة ١٢٨٢هـ) ، وبدأ يفكر فى الذهاب إلى القاهرة كى يلتحق بالجامع الأزهر.. وتحت تأثير التصوف حدث ذلك الذى صور به تلك الرغبة عندما كتب ليقول : (فى يوم من شهر رجب من تلك السنة ـ سنة ١٢٨٢هـ ـ كنت أطالع بين الطلبة ، وأقرر لهم في "شرح الزرقانى" ، فرأيت أمامى شخصاً يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب، فلما رفعت رأسى إليه قال ما معناه: ما أحلى حلواء مصر البيضاء. .. فقلت له وأين الحلوى التى معك؟ فقال : سبحان الله! من جد وجد! ... ثم انصرف.. فعددت ذلك القول إلهاماً ساقه الله إلىّ ، ليحملنى على طلب العلم فى مصر، دون طنطا).

● ذهب الى الأزهر ، بمصر، فى فبراير سنة ١٨٦٦م (شوال سنة ١٢٨٢هـ) (٣).

---

(٣) يخطئ الأستاذ العقاد في هذا التأريخ ويجعله سنة ١٨٦٥م .

● كان بالأزهر يومئذ حزبان: شرعي محافظ. . وحزب صوفى أقل فى محافظته من الشرعيين. . وحضر محمد عبده دروس كل من الحزبين، فسمع من الحزب الشرعى المحافظ دروس المشايخ: عليش ، والرفاعى ، والجيزاوى والطرابلسى والبحراوى . . ولكنه انتمى إلي الحزب الصوفى ، وكان رائده الشيخ حسن رضوان (المتوفى سنة ١٨٩٢م - سنة ١٣١٠هـ) صاحب منظومة (روض القلوب المستطاب) ... وكان من هذا الحزب الشيخ حسن الطويل، والشيخ محمد البسيونى...

-٣-

زار الأفغانى مصر للمرة الثانية، وطاب له المقام بها فى سنة ١٨٧١م (سنة ١٢٨٨هـ) فاتصل به محمد عبده، ولازم مجلسه منذ شهر المحرم من ذلك العام (٤) .. .وودع لذلك حلقات الدروس الأزهرية العقيمة بأرجوزة نظمها وقال فيها:

لوكان هذا وصفهم ما شنعوا — بل وقتهم فى جاء زيد ضيعوا
ظنوا بأن العلم علم القول ... لا — والله ، بل علم القلوب فضلاً

● انتقل به الأفغانى من التصوف والتنسك الى(الفلسفة - الصوفية) ... وكان الأفغانى يقول: الفيلسوف ان لبس الخشن، وأطال المسبحة، ولزم المسجد فهو صوفى ... وإن جلس فى قهوة (متاتيا) وشرب الشيشة فهو فيلسوف!!.

---

(٤) يخطئ الأستاذ العقاد فيقول : أن الإمام لقي الأفغاني في سنة ١٨٦٩م، وهي السنة التي حدثت فيها زيارة الأفغاني الأولى والقصيرة لمصر ، وهو خطأ ينقبه تأريخ الإمام نفسه لبدء اتصاله بالأفغاني .

● كتب مقدمة (رسالة الواردات) الفلسفية، التى أملاها الأفغانى سنة ١٨٧٢م (سنة ١٢٩٠هـ) ، وهذه المقدمة هى أول الآثارالفكرية التى حفظت لنا من تراثه (وهى لم تتنشر إلا بعد وفاته).

● أول مانشر باسمه كان (بالأهرام) فى سنته الأولى سنة ١٨٧٦م (سنة ١٢٩٣هـ) وكان لايزال يلتزم السجع فى أسلوبه، وسنه يومئذ كانت سبعة وعشرين عاما .

● دخل امتحان العالمية فى سنة ١٨٧٧م(١٣جمادى سنة١٢٩٤هـ) ، ونالها من الدرجة الثانية ، وكانت سنه ثمانية وعشرين عاماً ، ولولا إصرار رئيس لجنة الإمتحان الشيخ محمد المهدى العباسى، شيخ الأزهر، على نجاحه ، لرسب، لأن بعض الأعضاء كانوا قد تواصوا على إسقاطه ، لآرائه وصحبته لجمال الدين الأفغانى!.

● واصل بعد تخرجه تدريس كتب المنطق، والكلام المشوب بالفلسفة فى الأزهر... وقد كان حتي قبل تخرجه يعيد على طلبة الأزهر إلقاء دروس الأفغانى فى منزله، والكتب التى يشرحها ويعلق عليها، فقرأ لهم (إيساغوجى) فى المنطق، (وشرح العقائد النسفية) لسعد التفتازانى، مع حواشيه، و(مقولات السجاعى بحاشية العطار) ، وغيرها.. وعقد فى بيته درساً شرح فيه لبعض الطلبة بعض المؤلفات الفكرية الحديثة والقديمة، مثل: (التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوروبية) للوزير الفرنسى (فرانسوا جيزو)، تعريب الخواجة نعمة الله خورى، وقرظه فى (الأهرام)هو واستاذه الأفغانى. وكتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه.

● فى سنة ١٨٧٨م (أواخر سنة ١٢٩٥هـ) عين مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم، فقرأ على طلابها مقدمة ابن خلدون، وألف لهم كتاباً ، ضاعت أصوله، هو (علم الاجتماع والعمران)، وعين مدرساً للعلوم العربية فى مدرستى الألسن والادارة.

● اشترك مع استاذه الأفغانى فى التنظيمات السياسية السرية التى أنشأها الأفغانى بمصر، فدخل فى (الحزب الوطنى الحر) الذى كان شعاره (مصر للمصريين) - أى لا للأجانب ولا للشراكسة - والذى ضم الطلائع الوطنية المستنيرة من طبقات مصر فى ذلك الحين.

● أبرز أعماله الفكرية فى هذه المرحلة، بعد دروسه وتدريسه، مقالاته فى الصحف، وهى :(تقريظ جريدة الأهرام) و (الكتابة والقلم)و (العلوم الكلامية، والدعوة إلى العلوم العصرية)، وتقديم تقريظ الأفغانى لكتاب (التحفة الأدبية).. كما صاغ فى هذه المرحلة العديد من آثار أستاذه الأفغانى، مثل حاشيته على شرح الدوانى للعقائد العضدية، وفلسفة التربية،وفلسفة الصناعة،ورسالة الواردات ... وصاغ أيضاً الرسالة التى ترجمها على باشا مبارك، ونشرها بالأهرام بعنوان(المدبر الانسانى والمدبر العقلى الروحانى).

● وأهم قسمة تميز بها انشاءه عن إنشاء غيره - ممن صاغ لهم أفكارهم وأماليهم - فى هذه المرحلة، هى السجع.. فلقد كان يسجع عندما ينشئ، ويتخلى عنه عندما يصوغ أفكار وآمالى الآخرين الذين لايسجعون.

-٤-

فى يوليو سنة ١٨٧٩م (سنة١٢٩٦هـ). نفى الأفغانى من مصر ... وعزل الإمام من مناصب التدريس فى مدرستى دار العلوم والألسن ... وحددت إقامته بقريته (محلة نصر).

● فى سنة ١٨٨٠م (أواسط سنة ١٢٩٧هـ) استصدر رياض باشا، ناظر النظار، عفواً من الخديوى توفيق عن الإمام، واستدعاه من قريته وعينه محرراً ثالثاً فى(الوقائع المصرية) فاستهل كتابته بها فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠م، وفى٩أكتوبر من نفس العام عين رئيساً لتحريرها (محرراً أول للصحيفة العربية الرسمية) ، وتولى مسؤولية الرقابة على المطبوعات.

● فى٢٨ مارس سنة ١٨٨١م (٢٨ربيع الآخر سنة ١٢٩٨هـ) أنشىء المجلس الأعلى للمعارف العمومية، وعينّ الإمام عضواً فيه.

● فى هذه الفترة أبعد عن الاشتغال بالتدريس ، وعمل بالصحافة والسياسة .. ولذلك برز اختلافه عن الأفغانى فى وسيلة النهضة بالشرق والشرقيين (فهو عندما يدرس لايختلف عن الأفغانى إلا فى درجة الميل الى الفلسفة .. ولكن عندما يعمل بالسياسة العليا والمباشرة يبدو الفرق بينهما واضحاً .. ..فرق المصلح من الثورى)

● انضم مع الحزب الوطنى الحر الى العرابيين بعد مظاهرة عابدين في٩ سبتمبر سنة١٨٨١م. . . .

● ثم ألقى بكل قواه فى الثورة بعد المذكرة الثنائية الانجليزية ـ الفرنسية الى مصر فى يناير سنة ١٨٨٢م عندما تهددت الأخطار الأجنبية استقلال مصر. وظل فى مكانه من المسؤولية والقيادة مع الثوار حتى هزيمة الثورة فى سبتمبر سنة ١٨٨٢م.

● بعد هزيمة الثورة سجن ثلاثة أشهر... ثم حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات بدأت فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢م. ولكنها امتدت إلى مايقرب من ست سنوات.

● أبرز أعماله الفكرية في هذه المرحلة، هي مقالاته. وأغلبها نشر في (الوقائع المصرية) مثل: (عيد مصر ومطلع سعادتها) و (حاجة الإنسان إلى الزواج) و (حكم الشريعة في تعدد الزوجات) و(حكومتنا والجمعيات الخيرية) و (حب الفقر أو سفه الفلاح) و(ابطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية) وغيرها و أيضاً (ترجمته للبارودى) و (برنامج الحزب الوطنى الحر) و (دفاع عن حكومة الثورة) و (مفكرة الأحداث العرابية) و كتاباته، من السجن شعراً ونثراً بعد هزيمة الثورة ... الخ .. الخ ..

-٥-

ذهبت إلى (بيروت) منفياً في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢م (١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ) ، وكانت سنه يومئذ أربعة وثلاثين عاماً ، فأقام بها نحو عام ، حتى دعاه أستاذه الأفغاني إلى اللحاق به في باريس في أواخر سنة ١٨٨٣م (٥) .

● من حجرة صغيرة متواضعة فوق سطح أحد منازل باريس أخذ يعمل مع الأفغاني في إخراج جريدة (العروة الوثقى) ، لسان حال جمعية (العروة الوثقى) السرية التي قام تنظيمها في بلاد الشرق، وخاصة مصر والهند .. فصدر منها ثمانية عشر عدداً ، أولها في١٣ مارس سنة ١٨٨٤م سن (١٥ جمادي الأولى سنة ١٣٠١ هـ) وآخرها في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ من ذي الحجة ١٣٠١هـ) وكان عمله في هذه الجريدة عمل (المحرر الأول) (رئيس التحرير).

● شغل في تنظيم (العروة الوثقى) السرى منصب نائب الرئيس (الأفغاني)..ومارس العمل التنظيمي السرى ..وتنقل بهذه

---

(٥) يخطئ الأستاذ العقاد فيحدد سنة ١٨٨٤م تاريخاً لهذه الرحلة .

الصفة فى بلاد كثيرة، بعضها فى أوروبا، وبعضها فى الشرق .. وكانت كثير من رحلاته هذه سرية . . ودخل مصر فى هذه الفترة سراً (سنة ١٨٨٤م) أثناء اشتداد ثورة المهدى فى السودان ، وباشر قيادة عمل الجمعية السرية (٦) . . وكتب فى هذه الفترة عدداً من الرسائل السرية الى بعض فروع التنظيم.

● زار (لندن) داعياً لوجوب جلاء الانجليز عن مصر ، والتقى بوزير الحربية الانجليزى ووجوه البرلمان والصحافة والرأى العام.

● بعد توقف (العروة الوثقى) ، ويأسه من العمل السياسى المباشر كوسيلة لنهضة الشرق، غادر باريس إلى تونس ، ومنها إلى بيروت سنة ١٨٨٥م ، على أمل العودة إلى مصر ثانية.

● فى هذه الفترة أسس جمعية سرية للتقريب بين الأديان. شارك فيها عدد من رجال الدين المستنيرين ممن ينتمون إلى الأديان السماوية الثلاثة .. وفى بيروت مارس العمل الثقافى والتربوى والفكرى، إلى جانب قليل من العمل السياسى المباشر بحكم الصلات التى كانت لاتزال قائمة بينه وبين الأفغانى وتنظيم العروة الوثقى .

● من مقالاته السياسية التى كتبها ببيروت: (رسالة للسير صمويل بيكر فى السودان ومصر وانجلترا) ، (ومصر وجريدة الجنة)، و (مراسلات)، و (مصر والمحاكم الأهلية) ، وبعض الرسائل لعدد من الساسة والوجهاء. ومنها أرسل بعض آراء الأفغانى وتنظيم العروة الوثقى فى السياسة الشرقية فنشرت، دون توقيع، فى (الأهرام) بالاسكندرية ، وفى نشاطه السياسى هذا كان ملتزماً بخط العروة الوثقى فى العداء الصريح والمباشر للانجليز.

● ومن مقالاته الاجتماعية فى هذه الفترة مقال (الإنتقاد) الذى كتبه فى مجلة (ثمرات الفنون).

---

(٦) هذه الحقيقة تذكر للمرة الأولى في التأريخ للأستاذ الإمام ،أنظر الجزء الأول من أعماله الكاملة ص٦٠٦ ، ٦١٨ .

● برزت فى بيروت جهوده التربوية وأعماله الثقافية والفكرية .
. فكتب، (لائحة إصلاح التعليم العثمانى) و (لائحة إصلاح القطر السورى)، وشرع فى كتابة (لائحة إصلاح التربية فى مصر) ...
كما شرع فى تحقيق كتب التراث العربى الإسلامى ، كرائد للمحققين العرب فى العصر الحديث، فحقق وشرح (مقامات بديع الزمان الهمذانى)، (ونهج البلاغة)، والتزم فى التحقيق منهجاً علمياً بعد ذلك الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الشعر الجاهلى).

● كما أتم فى بيروت كذلك ترجمة (رسالة الرد على الدهريين) للأفغانى ، عن الفارسية، بمساعدة تابع الأفغانى (عارف أفندى أبو تراب)، وصدرها بترجمة هامة لأستاذه الأفغانى .

● اشتغل بالتدريس فى (المدرسة السلطانية) ببيروت سنة ١٨٨٦م (سنة ١٣٠٣هـ) فانتقل بها من مدرسة شبه ابتدائية إلى مدرسة شبه عالية ... ومن الكتب التى شرحها فيها (نهج البلاغة)و (ديوان الحماسة) وإشارات ابن سينا، وكتاب التهذيب، ومجلة الأحكام العدلية العثمانية . . كما ألقى فيها دروس التوحيد التى تحولت بعد عودته لمصر إلى (رسالة التوحيد) .

● بدأ تفسير القرآن بمنهج عقلى حديث لم يسبق فى الشرق منذ يقظته، طبق فيه منهج أستاذه الأفغانى ، وكان ذلك بالمسجد العمرى ببيروت، فكان يعقد درسه به ثلاث ليال فى الأسبوع ، واجتذب درسه هذا الحركة الفكرية والثقافية هناك، حتى أن المستنيرين من المسيحيين كانوا يجتمعون على باب المسجد لسماعه ولما حالت ضوضاء الشارع دون سماعهم له طلبوا منه السماح لهم بدخول المسجد لمتابعة حديثه، فسمح لهم بالوقوف داخل المسجد إلى

جوار الباب ؟! ... واستمرت دروسه هذه فى التفسير حوالى السنتين. ولم يسجل لنا منها شيء. ...

● فى بيروت تزوج من زوجته الثانية، بعد أن توفيت زوجته الأولى.

● سعى من بيروت لدى أصدقائه كى يطلبوا له العفو ليعود إلى مصر .. وكان تلميذه سعد زغلول يلح على الأميرة نازلى هانم فاضل كى تستخدم نفوذها عند كرومر للعفو عن الإمام .. وسعى لذلك أيضاً الشيخ على الليثى والغازى أحمد مختار باشا، وكيل السلطان بالقاهرة .. وعندما اقتنع كرومر بأن الإمام لن يعمل بالسياسة، وأنه سيقصر نشاطه على العمل التربوى والثقافى والفكرى استخدم نفوذه فى استصدار العفو من الخديوى توفيق. فعاد الأستاذ الإمام إلى مصر فى سنة ١٨٨٩م (سنة ١٣٠٦هـ) .

-٦-

عندما عاد الإمام إلى مصر اتخذ لنفسه سكناً فى شارع (الشيخ ريحان) ، بالقرب من قصر عابدين. . ولما زاره صديقه عبد العزيز أفندى سلطان طرابلسى، وسأله عن سر اختياره هذا المكان للسكنى ، قال له : (حتى نناطح عابدين مناطحة) ؟!.

● كان يدرك أن الود المفقود بينه وبين الخديوى توفيق سيظل مفقوداً، فسلك طريق العلاقات المباشرة مع اللورد كرومر، وقدم إليه ، مباشرة ، اللائحة التى كتبها لإصلاح التربية والتعليم بمصر.

أراد أن يمارس عمله المحبب، وهو التدريس ، وخاصة فى دار العلوم... فرفض الخديوى توفيق، حتى لا يتيح له فرصة تربية الأجيال الجديدة على أساس من آرائه وأفكاره، وعينه الخديوى سنة ١٨٨٩ م ، قاضياً بمحكمة (بنها) كى يبعده عن القاهرة وعن التدريس، فقبل على مضض ، ثم انتقل إلى محكمة الزقازيق ، ثم محكمة عابدين، ثم ارتقى إلى منصب مستشار فى محكمة الاستئناف سنة ١٨٩١م.

● فى هذه الفترة دارت مراسلات قليلة بينه وبين الأفغانى فى الآستانة بعد أن استقر بها سنة ١٨٩٢م . . . ولكن موقف الإمام من السياسة والانجليز جلب عليه غضب أستاذه..

● بعد موت الخديوى توفيق، وتولى الخديوى عباس حلمى الثانى السلطة .، قامت فترة من الوفاق بين الأستاذ الإمام وبين العرش، وكان أساسها أن الإمام اقنع الخديوى بأن يعاونه في العمل لإصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية والاجتماعية الثلاث : الأزهر والأوقاف، والمحاكم الشرعية ...وفي سنة ١٨٩٥م (٦رجب سنة ١٣١٢هـ) تشكل مجلس إدارة الأزهر، برئاسة الشيخ حسونة النواوى، ودخل فيه الأستاذ الإمام والشيخ عبد الكريم سلمان ممثلين للحكومة، وكان حريصاً على أن يسير هذا المجلس وفق لائحته وقوانينه، لا بمشيئة الخديوى وحاشيته، وقال للخديوى يوماً ، أمام أعضاء المجلس:(إن مجلس إدارة الأزهر لايعرف لسموكم أمراً

عليه إلّا بهذا لقانون الذى بين يديه، دون الأوامر الشفوية التى يبلغها عنكم من لايثق به المجلس، لمخالفته قانونكم!). اصطدمت سياسة الوفاق بينه وبين الخديو عباس بعاملين أساسيين :

أولهما: مذهب الإمام المعتدل فى سياسته إزاء الإنجليز، والذى جعله يهادن كرومر وسلطة الاحتلال، فلا يعتبر معركته المباشرة ضدهم، وإنما ضد العقبات التى تحول دون إصلاح الأزهر، والأوقاف، والمحاكم الشرعية، والتربية والتعليم. وهو الموقف الذى رضى عنه الانجليز ورحبوا به، لأنه يتيح لهم الهدوء والاستقرار.

وثانيهما: معارضة الأستاذ الإمام وحسن باشا عاصم لمطامع الخديوى فى أراضى الأوقاف، عندما أراد استبدال بعض أراضيه بأخرى من أراضى الأوقاف.. وبذلك انتهت فترة الوفاق هذه الى مرحلة من الحذر والعداء، استمرت من سنة ١٩٠٢م (سنة ١٣١٨).

● فى ٣ يونيو سنة ١٨٩٩م(٢٤ محرم سنة ١٣١٧هـ) عين فى منصب مفتى الديار المصرية .... وتبعاً لهذا المنصب أصبح عضواً فى مجلس الأوقاف الأعلى ،فسعى إلى إصلاحها، وإصلاح المساجد بوضع وتطبيق اللائحة التى ضمنها أفكاره لإصلاح هذا المرفق الإسلامى الهام.

● وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩م (١٨صفر سنة ١٣١٧هـ) عين عضواً فى مجلس شورى القوانين.

● فى سنة ١٩٠٠م (سنة ١٣١٨هـ) أسس (جمعية إحياء العلوم العربية) فحققت ونشرت عدداً من آثار التراث العربى الإسلامى الفكرية الهامة. وشارك الإمام فى عمل هذه الجمعية باستحضار المخطوطات، واستكمال نسخها، ومراسلة الملوك والسلاطين والقضاة لهذا الغرض، ومقابلة النسخ المخطوطة والشرح والتعليق على هذه الآثار الفكرية الهامة.

● فى هذه الفترة من حياته سافر إلى خارج مصر عدة مرات. . إلى الشام ... وإلى أوروبا أكثر من مرة، أشهرها رحلته إليها سنة ١٩٠٣م (سنة ١٣٢١هـ) ، ومنها عرج علي تونس والجزائر ، ثم صقلية وإيطاليا ... كما سافر إلى السودان فى المدة من ١٨ حتى ٣١ يناير سنة ١٩٠٥م.

● بدأ فى هذه المرحلة يلقى دروسه فى تفسير القرآن الكريم بالجامع الأزهر من يونيو سنة ١٨٩٩م (شهر المحرم سنة ١٣١٧هـ) . واستمر فى إلقائها نحو ست سنوات .

● وكان الشيخ رشيد رضا يدون ملخصاً ، فى الدرس، لهذا التفسير، وبعد عام من بدئه أخذت تنشره مجلة (المنار) (عدد محرم سنة ١٣١٨هـ مايو سنة ١٩٠٠م) ، واستمر ينشر فيها شهرياً حتى عددها الخامس من سنتها الخامسة عشرة (٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ ، ١٧ مايو سنة ١٩١٢م). . . . وبعد ذلك أخذ رشيد رضا يواصل التفسير منفرداً بالعمل فيه.

● من أبرز أعماله الفكرية فى هذه المرحلة: فتاويه، وأحاديثه للصحف والمجلات، و (رسالة التوحيد) ، وتحقيق وشرح (البصائر النصيرية للطوسى)، وتحقيق وشرح (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) للجرجانى، و (الرد على هانوتو)، ومقالات الاضطهاد فى النصرانية والاسلام - (الاسلام والنصرانية ، بين العلم والمدنية)- التى رد بها على فرح أنطون سنة ١٩٠٢م ، (وتقرير إصلاح المحاكم الشرعية) سنة ١٨٩٩م ... والفصول التى شرع بها الترجمة لحياته، ومقالات (المستبد العادل)، و (الرجل الكبير فى الشرق)،و(آثار محمد على فى مصر)...ومجموعة ملاحظاته

وآرائه حول الثورة العرابية، سواء منها ما كتبه فى مشروعه لتأريخها بطلب من الخديوى عباس، أو ما كتب لصديقه القديم (بلنت) ... وأيضا ترجمته لكتاب(التربية) هربرت سبنسر عن الفرنسية، التى تعلمها فى هذه المرحلة من حياته ....وكذلك وصيته التربوية التى أملاها بالفرنسيه فى مرضه الأخير على (الكونت دى جريفل)، فنشرها فى كتابه (مصر الحديثة).

● فى مارس سنة ١٩٠٥م (محرم سنة ١٣٢٢هـ) استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجاً على مؤامرات الخديوى عباس التى حال بها دون سير الإصلاح فى هذه الجامعة الكبيرة .

● وفى الساعة الخامسة من مساء يوم ١١ يوليو سنة ١٩٠٥م (٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ) توفى الاستاذ الإمام بالأسكندرية عن سبع وخمسين عاماً...وعن ثلاث بنات ... وعن حياة فكرية خصبة .. وجهود فى التربية والإصلاح...ومواقف تجسد عظمة الإنسان لاتموت !.

عن الرسالة

● أن كتاباً يكون موضوعه:

● الله ، جلَّ جلاله ...وصفاته .. وأفعاله. . .

● والإنسان ...ومكانته وأفعاله . .

● والرسالة والنبوة ـ عامة ـ ولمحمد بن عبد الله ﷺ على وجه الخصوص . .

● والقرآن الكريم . . معجزة الإسلام ورسوله. . .

● ثم .. هذه العقائد والأصول، كما تبلورت فى الشريعة الإسلامية ـ وهى رسالة الله الدينية الى محمد وأمته . . ورسالة العرب الحضارية الى الانسانية جمعاء !. .

ان كتابا يكون هذا موضوعه لهو على جانب عظيم من الخطر والأهمية ... وهذا هو موضوع (رسالة التوحيد) ؟!..

وعندما يكون كاتب (رسالة التوحيد) هذه هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ)/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) ، أبرز أعلام مدرسة التجديد الدينى فى عصرنا الحديث. فإن هذه (الرسالة) تزداد أهمية . وموضوعها يتزايد خطراً ؟!. .

فقبل عصر يقظتنا وتنويرنا ونهضتنا، التى أسهمت مدرسة التجديد الدينى هذه فى صنعه بالنصيب الأوفى، كانت عقائد هذه الأمة وأصول دينها قد رانت عليها الجهالات والبدع والخرافات .. وتحولت أغلب كتب (التوحيد) خلال العصر (المملوكى ـ العثمانى) الى (متون) و (حواشى) تمتلىء بالجدل اللفظى العقيم ، وتغرق عقل هذه الأمة فى طوفان من القصص الخرافى والاسرائيليات !..

ثم كانت (التعليقات) التى أملاها رائد مدرسة التجديد الدينى جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ـ١٨٩٧م) على تلاميذه .. وهى(التعليقات) التى قدمها

على (شرح الدوانى[1] للعقائد العضدية [2] .. كانت هذه التعليقات أول نص حديث فى الالهيات الاسلامية ، ينظر فى عقائد الأمة بعقل مستنير، ويقدم لها ـ مع النقد والاضافة ـ فكر فلاسفتها الإلهيين، الذين صنعوا بابداعهم عصر الازدهار الحضارى للعرب والمسلمين. . لكن هذه (التعليقات) قد ظلت.. لعمقها الشديد وتخصصها الأشد ـ كتاباً (للخاصة) من المفكرين المتفلسفين [3] !. .

ومرت السنوات. . وجمهور هذه الأمة وعامة مثقفيها يتطلعون الى كتاب فى (الإلهيات) ، يصحح لهم العقيدة، ويحرر فيهم العقل، ويمثل فى مكتبتهم رأى مدرسة التجديد الدينى فى أصول الدين وعقائده، حتى كانت هذه الرسالة ـ (رسالة التوحيد) ـ التى كتبها الاستاذ الإمام، لتنهض بهذا الدور الهام والعظيم!. .فهذه الرسالة هى واحدة من أهم نصوص الأستاذ الإمام. . تلك النصوص التى اقتربت صفحاتها ـ فى (أعماله الكاملة) من الأربعة آلاف صفحة! . . وذلك لخطر موضوعها، وللمنهج التجديدى العقلانى المستنير الذى عالج الأستاذ الإمام به هذا الموضوع .. فموضوعها هو (علم التوحيد) ، وهو ـ كما يقول الامام: (ركن العلم الشديد)!. كما تتجلى فى

---

(١)جلال الدين الدواني (٨٣١-٩١٨هـ/١٤٢٧-١٥١٢م) من فلاسفة الاسلام وقضاة فارس في عصره ..كتب بالفارسية إلى جانب العربية ،وترك شروحا على عدد من نصوص علم الكلام .

(٢) عضد الدين الايجي (٧٥٦هـ/١٣٥٥م) من علماء الكلام والاصول واللغة والبلاغة والتاريخ ، وكتابه :(المواقف) أحد المراجع الشهيرة في علم الكلام

(٣) حققنا هذه (التعليقات) ونشرناها في الجزء الأول من الطبعة الجديدة(للاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني) بيروت سنة ١٩٧٩.

أسلوبها خصائص أسلوب الأستاذ الإمام، كرائد فى التجديد للغة هذه الأمة وأسلوب كتابتها، بعد عصر الركاكة والمحسنات اللفظية. الأمر الذى ييسرها للجمهور، ويجعلها ـ فى ذات الوقت ـ زاداً فكريا دسما وعميقا للخاصة من الباحثين والمفكرين! .. وبعبارة المؤلف فأسلوب (الرسالة) (لايصعب تناوله، وان لم يعهد تداوله؟!) الأمر الذى يجعلها تلبى حاجة المقتصد، دون أن يستغنى عنها (المكاثر المتبحر فى العقائد والإلهيات !) ..

● وفى هذه الرسالة تبدو الروابط بين (العقائد) وبين (وظائفها) فى واقع الإنسان .. فللألوهية دور عظيم فى تحرير روح الانسان وعقله ... الأمر الذي جعل لهذا الانسان مكانة سامية فى الاسلام، مكانة الخليفة عن الله، المدعو لأن يتخلق بأخلاق الله !. . والموعود من ربه، إن هو صنع ذلك ، بأن يصبح ربانيا، أى مسيطرا، بالوعى، على قوانين حياته، حتى ليقول للشىء: كن فيكون؟!.

● وفى هذه الرسالة تتجلى نصرة الاسلام (للعقل) كى يهزم (التقليد) ، الذى قتل روح المبادرة والمخاطرة والإبداع فى الأمة، حتى عاشت ليل عصورها المظلمة فى ظل جهالة المماليك والعثمانيين!.. فالاسلام كما يقول الاستاذ الإمام: (قد انحى على التقليد، وحمل عليه حملة بددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم... لقد علا صوت الاسلام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم!. ولذلك أطلق الاسلام سلطان العقل من كل ماقيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع لله وحده !..).

● وفى هذه (الرسالة) يظهر الإسلام (بريئاً) من تلك الكهانة التى جعلت الدين حرفة يحترفها قوم انتزعوا لأنفسهم سلطان الله، بل واحتكروا ـ ظالمين ـ هذا السلطان، ثم سموا أنفسهم (رجال الدين) !. . يظهر الاسلام، فى هذه (الرسالة) (بريئاً) من هؤلاء (الوسطاء) بين الانسان وربه، بل و (عدوا) لهذه الوساطة وهؤلاء الوسطاء!. . فكما يقول الأستاذ الإمام : (لقد مال الإسلام على الرؤساء ، فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون، لا بما يظنون ويتوهمون) ! . .

● وفى هذه (الرسالة) نرى الاسلام قد أنزل (الماضى) عن عرشه، الذي احتله بحكم أنه (ماض) فقط لاغير؟!.. فالذين يقدسون (الماضى) ، ويزداد تقديسهم له كلما أوغل فى العتاقة والقدم، ليس موقفهم هذا من الاسلام فى شىء ... وبعبارات الأستاذ الإمام : (. فلقد سجل الاسلام الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آيةِ من أيات العرفان.. وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه؟!).

● وفى هذه (الرسالة) نرى أية كنوز يضعها الاسلام بين يدى أمته، لافتا اليها بصرها وبصيرتها ، مهيبا بها أن تفتح هذه الكنوز الميسورة، وتستثمرها فى النهضة واللحاق، بل والسبق للآخرين!. .

فإذا كان العقل، بنظر الاسلام، وبعبارات الأستاذ الإمام (هو أفضل القوى الانسانية على الحقيقة!).. فإن (العقلانية الاسلامية) ـ

كما تجسدها فصول هذه (الرسالة) - تهيىء للإنسان المسلم،(بمقتضى دينه، أمرين عظيمين، طالما حرم منهما ، وهما:

أ - استقلال الإرادة. .

ب - واستقلال الرأى والفكر . .

وبهما كانت انسانيته ! ، وبهما استعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له، بحكم الفطرة التى فطر عليها!).

ثم يعقب الأستاذ الإمام على مايهيئه الإسلام للمسلم من استقلال فى الإرادة، والرأى والفكر... فيستشهد بأقوال حكماء الحضارة الغربية التى تعزو نشأة المدنية الأوروبية الى هذا الاستقلال! وكأنه بذلك يقول لنا: إن نقطة البدء، ومصدر الانطلاق لمن يريد انهاض الأمة وتقدمها هو الاسلام. . الاسلام كما يفهمه ويفقهه عقل المسلم المستنير، على النحو الذى تعرضه (رسالة التوحيد)!. .

تلك (إشارات) على ما فى هذه (الرسالة) من أضواء تنير للمسلم عقله وطريقه. . وما بها من طاقات تدفع خطو هذه الأمة على درب تحررها العقلى وتقدمها الحضارى نحو الأمام !..

فالى القارى العربى والمسلم نقدم هذه الطبعة المحققة لـ (رسالة التوحيد) ، بعد أن قدمناها من قبل ضمن (الأعمال الكاملة) للأستاذ الإمام..

وعلى الله قصد السبيل .. فهو ولى العون والتوفيق. ...

دكتور

محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ، الرَّحمنِ الرَّحيمِ مَالِكِ يَومِ الدينِ إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نستَعينُ، اهْدنا الصِّراطَ المستَقيمَ، صِراطَ الَّذينَ أنعَمتَ عَلَيْهِمْ، غَيرِ المغضُوبِ عَلَيْهِمْ ولَا الضَّالين.

(وبعد) .. فلما كنت فى بيروت، من أعمال سوريا، أيام بعدى عن مصر، عقب حوادث سنة ١٢٩٩هجرية [١] ودعيت فى سنة ١٣٠٣ [٢] لتدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانية ، ومنها علم التوحيد، رأيت أن المختصرات في هذا الفن لا تأتى على الغرض من افادة التلاميذ، والمطولات تعلو عن أفهامهم، والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم.

فرأيت من الأليق أن أملى عليهم ماهو أمس بحالهم . فكانت أمالي مختلفة ، تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقربها إلى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الأولى ، فى اسلوب لايصعب تناوله، وإن لم يعهد تداوله، وسير منها الى المطالب من غير نظر الاصحة الدليل، وان

---

(١) الاشارة إلى حوادث الثورة العرابية سنة١٨٨٢ .

(٢) الموافقة لسنة ١٨٨٥-١٨٨٦م .

جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف، رامياً الى الخلاف من مكان بعيد، حتى قد لايدركه الا الرجل الرشيد.

غير أن تلك الآمالى لم تحفظ إلا فى دفاتر التلامذة، ولم استبق لنفسى منها شيئا، وعرض بعد ذلك ما استقدمنى إلى مصر ، وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم، حتى أتى النسيان على ماأمليت، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت، الى أن خطر لى من مدة أشهر خاطر العود الى ماتهواه نفسى ، ويصبو اليه عقلى وحسى. وأن أشغل أوقات فراغى بمدارسة شيء من علم التوحيد، علما منى أنه ركن العلم الشديد.

فذكرت سابق العمل، وتعلق بمثله الأمل، ولكيلا انفق من الزمن ما أنا فى أشد الحاجة إليه فى انشاء ما أرى التعويل عليه، عزمت أن اكتب الى بعض التلامذة فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على الفرقة الأولى، فطلبته وقرأته، فإذا هو على مقربة مما أحب، قد يحتاج إليه القاصر، وربما لايستغنى عنه المكاثر، على اختصار فيه مقصود، ووقوف عند حد من القول محدود، قد سلك فى العقائد ملك السلف، ولم يعب فى سيره آراء الخلف، وبعد عن الخلاف بين المذاهب، بعد مليه عن أعاصير المشاغب.

لكن وجدت فيه إيجازاً فى بعض المواضع، قد لا ينفذ منه ذهن المطالع، وإغفالاً لبعض ماتمس الحاجة اليه، وزيادة عمّا يجب فى مختصر مثله أن يقتصر عليه، فبسطت بعض عباراته، وحررت ماغمض من مقدماته ،وزدت ما أغفل، وحذفت مافضل، وتوكلت على الله فى نشره، راجياً أن لايكون فى قصره مايحمل على إغفال أمره، أو يغض من قدره، فما أحد بأصغر من أن يعين، ولا بأكبر من أن يعان، والله وحده ولى الأمر وهو المستعان.

مقدمات

التوحيد:

علم يبحث فيه عن وجود الله ، ومايجب أن يثبت له من صفاته ، ومايجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل ، لاثبات رسالتهم ، ومايجب أن يكونوا عليه ، ومايجوز أن ينسب اليهم ، وماعتنع أن يلحق بهم.

أصل معنى التوحيد : اعتقاد أن الله واحد ، لاشريك له . وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلقه الأكوان،وأنه وحده مرجع كل كون ، ومنتهى كل قصد.

وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى ﷺ ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز ، وسيأتى بيانه .

وقد يسمي علم الكلام ، اما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، واما لأن مبناه الدليل العقلى ، وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه ، وقلما يرجع فيه الى النقل ، اللهم إلّا بعد تقرير الأصول الأولى ، ثم الإنتقال منها الى ماهو أشبه بالفرع عنها ، وإن كان أصلا لما يأتي بعدها ، وإما لأنه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تنبيه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر ، وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما.

هذا النوع من العلم ، علم تقرير العقائد ، وبيان ماجاء فى النبوات، كان معروفا عند الأمم قبل الاسلام ، ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم الى ذلك ، لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى ، وبناء آرائهم وعقائدهم على مافى طبيعة الوجود أو مايشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الإلزام بالعقائد ، وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض ، وكثيرا ماصرح الدين على لسان رؤسائه : أنه عدو العقل ، نتائجه ومقدماته ، فكان جل مافى علوم الكلام تأويل وتفسير وإدهاش بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية.

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجاً لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ، ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فترك الاستدلال على نبوة النبى ﷺ بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، وحصر الدليل فى حال النبى ﷺ مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهية ما أذن الله لنا وما أوجب علينا أن تعلم .

لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنّه جاء بحكايته ،إدّعى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض

الفكر ، وعرض نظام الأكوان ومافيها من الاحكام والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها ، لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ، حتى أنه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لاتغير وقاعدة لاتتبدل ، فقال :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ التى قَدْ خَلَتْ من قَبلُ ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبْديلا ﴾ (١) . وصرح : ﴿إن اللّه لايُغيِّرُ ما بقومٍ حتَّى يغيروا مَا بأنفُسهم ﴾ (٢) ، واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب .. فقال :﴿ إدْفع بِالتى هِيَ أحسن فإذا الذِي بَينَكَ وَبَينَهُ عَدَاوةٌ كأنَّهُ ولىٌ حميم ﴾ (٣) .

وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس ، على لسان نبى مرسل ، بتصريح لايقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة – الا من لاثقة بعقله ولابدينه – إنَّ من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه ، بما يوحى به اليهم ، وارادته لاختصاصهم برسالته ، ومايتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، والتصديق بالرسالة نفسها .

---

(١) الفتح:٢٣ .

(٢) الرعد :١١.

(٣) فصلت :٣٤.

كما أجمعوا على أن الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل.

جاء القرآن يصفُ اللهَ بصفات ، وان كانت أقرب الى التنزيه.مما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر مايشاركها في الاسم ، أو في الجنس ، كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر ، وعزا إليه أمورا يوجد مايشبهها في الانسان كالاستواء على العرش ، وكالوجه واليدين ، ثم أفاض في القضاء السابق، وفي الاختيار الممنوح للانسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين . ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر في الثواب والعقاب الى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لاحاجة الى بيانه في هذه المقدمة.

فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل فسح مجالاً للناظرين ، خصوصا ودعوة الدين الى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولامشروطه بشرط، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ماوصفه بلاغلو في التجريد ولا دنو في التحديد [٤] .

---

(٤) التجريد هنا يراد به الذهاب في تنزيه الله عن مشابهة الحوادث . وعن الإتصاف بالصفات الزائدة على الذات ، الى الحد الذى يصبح فيه تصور الذات الإلهية كفكرة مجردة عن الصفات والتحديدات ... ونحن نجد هذا التجريد عند المعتزلة وكل من وافقهم في التنزيه، وبالذات عند الفلاسفة الالهيين . . فابن رشد مثلا يتصور الذات الإلهية عقلا للعالم ، وعلما محضا ونظاماً هو أشبه بالقوانين التي تحكم الوجود وتحفظه وتهيمن عليه . . أنظر تصوره للذات الإلهية في دراستنا " المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد : طبعة دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٧١ م .أما التحديد فإننا نجده بدرجات متفاوتة عند المشبهة والمجسمة وبعض القائلين بالحلول والاتحاد.

مضى زمن النبى ، ﷺ، وهو المرجع فى الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ماقدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ مايخلون فيه مع عقولهم يبتلونها [٥] بالبحث فى مبانى عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل رد اليهما ، وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ، ان كانت حاجة الى الاستشارة ، وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد، ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ويرون أن له معنى غير مايفهمه ظاهر اللفظ .

كان الأمر على ذلك الى أن حدث ماحدث فى عهد الخليفة الثالث ، وأفضى الى قتله ، هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، وبقى القرآن قائماً على صراطه ﴿ **إنّا نحن نزلنا الذكرَ وإنّا له لحافظون** ﴾[٦]. . وفتح للناس باب لتعدى الحدود التى حدّها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، وأشعر

---

(٥) يبتحثونها ويحصرونها .

(٦) الحجر :٩.

الأمر قلوب العامة ان شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير مايحبون.

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ ، يهودى أسلم وغلى فى حب على كرم الله وجهه ، حتى زعم أن الله حل فيه ، وأخذ يدعو الى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان ، فنفاه الى مصر ، فوجد فيها أعوانا على فتنته ، الى أن كان ماكان مما ذكرنا ، ثم ظهر بمذهبه فى عهد على فنفاه الى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده (٧) .

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ماعقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد انصدع ، وانقصمت عرى الوحدة

---

(٧) من الباحثين من يشكك فى وجود شخصية عبد الله بن سبأ أصلاً أو على الأقل يرى أن الناس قد اتخذوا منها مشجباً يعلقون عليه الأخطاء حتى لاتلحق الشبهات بشخصيات عزيزة على القلوب من صحابة رسول الله ، وحتى لاترد المسببات الى أسبابها الحقيقية ، تلك الأسباب التى أثمرت أحداث عهد عثمان بن عفان . انظر فى ذلك د. طه حسين " الفتنة الكبرى " ج ١ ، ٢ طبعة دار المعارف . القاهرة .

بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة وأخذ الأحزاب فى تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل، وكانت نشأة الإختراع فى الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل . فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتزلين ، وغلا الخوارج فى عهد مروان الأول (٨) فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمناً طويلا الى أن تضعضع أمرهم على يد المهلب بن أبى صفرة (٩) وانتشرت فارتهم فى بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتن ، وبقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية جزيرة العرب .

وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الألوهية أو مايقرب منه ، وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد .

غير أن شيئا من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع ، وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والافريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع

---

(٨) هو مروان بن الحكم الأموى ، حكم بعد معاوية الثانى (٦٨٣-٦٨٥م)

(٩) من قواد الحجاج بن يوسف الثقفى ، تمكن من هزيمة الخوارج الأزارقة بقيادة قطرى بن الفجاءة الذين كانوا قد امتلكوا " كرمان " وكانت الموقعة الفاصلة سنة ٦٩٨م أو سنة ٦٩٩.

عن سلطان الاسلام ، وآن لهم أن يشتغلوا فى أصول العقائد والأحكام بما هداهم إليه سير القرآن اشتغالاً يحرص فيه على النقل ولايهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر، ووجد من أهل الإخلاص من انتدب نفسه للنظر فى العلم والقيام بفريضة التعليم. ومن أشهرهم الحسن البصرى (١٠) ، فكان له مجلس للتعليم والإفادة فى البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع .

وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه ، فثارت الشبهات بعد ماهبت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ماصرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء من حق لهم السبق ، من العرفاء ، وبدت رؤوس المشاقين تعلو بين المسلمين .

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الإختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ، ولم

---

(١٠) هو الحسن بن أبى الحسن (٢١-١١٠هـ، ٦٤١-٧٢٨م) واسم أبيه يسار ،وكان أبوه من سبى "ميسان" وهى "كورة" بين "البصرة" و"واسط" ،، وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت تعطيه ثديها فى غياب أمه وهو رضيع ، أنظر (تهذيب التهذيب) لابن حجر العسقلاني ج٢ ص ٢٧٠ طبعة حيدر أباد بالهند سنة ١٣٢٥هـ.

يتب : اختلف فيها واصل بن عطاء [١١] مع أستاذه الحسن البصرى واعتزله . يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن - على قول - كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وإرادته [١٢]، وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان في عمله الارادي كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية . كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لايحفلون بالأمر ، ولايعنون برد الناس الى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ماشاء .

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد الى إثبات صفات المعانى للذات الإلهية أو نفيها عنها ، والى تقدير سلطة العقل فى معرفة الأحكام الدينية حتى ماكان منها فروعا وعبادات (غلوا فى

---

(١١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٩م) الملقب بالغزال ، من الموالى ، ولد بالمدينة ، ثم ذهب الى البصرة ، أخذ القول بحرية الإنسان واختياره عن معبد الجهنى ، وأخذ القول بالتنزيه عن جهم بن صفوان، وهو أول من تبلورت على يديه حركة المعتزلة التى ورثت تراث القائلين بالعدل والتوحيد . انظر : المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٧ ـ ٢٠ طبعة الهند سنة ١٣١٦هـ .

(١٢) تشهد بذلك رسالة له فى " القدر" بعث بها الى عبد الملك بن مروان . ولقد قمنا بتحقيقها ونشرها ضمن الجزء الأول من "رسائل العدل والتوحيد" طبعة "دار الشروق" فى القاهرة ، وفى الخلاف حول موقفه من هذه القضية انظر " تهذيب التهذيب " ج٢ ص ٢٧٠ و " المعارف" لابن قتيبة ٤٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م .

تأييد خطة القرآن) ، أوتخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى ، على ماسبق بيانه ، ثم غالى آخرون ، وهم الأقلون ، فمحوها بالمرة ، وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب ، عنادا للأولين [١٣] وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الاسلامى .

تفرقت السبل بأتباع "واصل" ، وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ماكان منه راجعاً الى أوليات العقل وماكان سرابا فى نظر الوهم ، فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة ، فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلون معتصمين بقوة اليقين وان لم يكن لهم عضد من الحاكمين .

عرف الأولون من العباسيين ماكان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم ، وأعدو لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم ، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا

---

(١٣) الاشارة الى " الظاهرية " ومدرسة " أهل الحديث " الذين أنكروا التأويل واعمال العقل فيما وراء ظاهر النصوص.

من الدين فى شىء . وكان فيهم " المانوية" [14] و (اليزدية) [15] ومن لادين له وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ، ويشيرون بخالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الإلحاد وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر" المنصور [16] بوضع كتب لكشف شبهاتهم و إبطال مزاعمهم .

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر فى الكائنات جرياً على ماسنه القرآن من ذلك .

حدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته [17]، وانتصر للأولى جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول ، أو صرح بالأزلية عدد

---

(١٤) ويقال لهم الثنوية ، وهم القائلون بالنور والظلمة وبقدمهما واستقلالهما. ونبيهم " مانى " الذى ظهر فى عهد " سابورين أردشير بن بابك " . وهم فرق متعددة . انظر : القاضى عبد الجبار " المغنى فى أبواب التوحيد والعدل " ج٥ ص ٩-٧٠.

(١٥) لعلها : المزدقية ، وهى فرقة من فرق الثنوية . انظر المصدر السابق، نفس الجزء والصفحات .

(١٦) المؤسس الحقيقى للدولة العباسية حكم من سنة ٧٥٤م حتى سنة ٧٧٥م.

(١٧) كان ذلك فى عهد المأمون العباسى سنة ٢١٨هـ .

غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق ، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين . على هذا كان النزاع بين ماتطرف من نظر العقل وماتوسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع ، ماتعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض [١٨] عليه .

وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهر يين ، طلبوا أن يحملوا القرآن على ماحملوه عند التحاقهم [١٩] بالاسلام ، وأفرطوا فى التأويل ، وحولوا كل عمل ظاهر الى سر باطن ، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعد الخطأ عن الصواب وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ، ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة.

---

(١٨) بمعنىترويض النفس وتعويدها وتطويعها عليه.

(١٩) يمكن أن تقرأ التحاقهم . بالقاف ، والتحافهم ، بالفاء ، على معنى أنهم لم يؤمنوا به كما يجب أن يكون الإيمان .

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا ، وكانت الأيام بينهن دولاً ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه الى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى (٢٠) فى أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون ، وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء ، كإمام الحرمين (٢١)، والاسفرايينى(٢٢) ، وأبى بكر الباقلانى (٢٣) وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة ، فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند

---

(٢٠) (٢٦٠-٣٢٤هـ ٨٧٣-٩٣٥م) ، ولد بالبصرة ، وتوفى ببغداد ، وكان شافعياً فى المذهب الفقهى ، وفى الكلام كان معتزلياً ثم خرج على المعتزلة ومن أهم كتبه " الإبانة عن أصول الديانة " و " مقالات الاسلاميين " . انظر دائرة المعارف الاسلامية .

(٢١) هو أبو المعالى عبد الملك بن أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى . الفقيه الشافعى ، وهو أستاذ الغزالى ، ونسبته الى " جوين " أحدى نواحى " نيسابور " ، توفى سنة ٤٧٨هـ .

(٢٢) المتوفى سنة ٤١٨هـ " ١٠٢٧م "

(٢٣) المتوفى سنة ٤٠٣هـ " ١٠١٣م "

الظواهر ، وقوة الغالين فى الجرى خلف ماتزينه الخواطر ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد قرنين إلا فئات قليلة فى أطراف البلاد الإسلامية .

غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى ، بعد تقريرهم مابنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى إليه من عقائد الإيمان ذهابا منهم إلى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول .

ومضى الأمر على ذلك الى أن جاء الإمام الغزالى (٢٤) والامام الرازى (٢٥) ومن أخذ مأخذهم ، فخالفوهم فى ذلك ، وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلاوجه للحجر فى الاستدلال.

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة ، الا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ماشاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم

---

(٢٤) ١٠٥٨ ـ ١١١١م " أشهر من أن يعرف .

(٢٥) المراد فخر الدين الرازى ، وهو أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين . المعروف بابن الخطيب ، ولد بمدينة الرى سنة ٥٤٤ هـ أو سنة ٥٤٣هـ. وتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

بحمايته ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم ، وإفادة الصناعة ، وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون ، مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله : ﴿خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ (٢٦) ، إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفياً ، وماكان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات فى سبيلهم الى ماهدوا إليه ، بعدما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعد ماصح من قوله عليه السلام: ﴿ أنتم أعلم بشؤون دنياكم ﴾وبعد ماسن لنا فى غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء (٢٧).

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم.

الأول : الإعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا عن أرسطو وأفلاطون ، ووجد أن اللذة فى تقليدها لبادىء الأمر .

---

(٢٦) البقرة : ٢٩ .

(٢٧) الاشارة الى أخذ الرسول برأى بعض الصحابة فى مكان النزول ببدر ، وعدوله عن رأيه هو فى المنزل الذى كان قد اختاره للنزول.

والثانى : روح الوقت [٢٨] ، وهو أشأم الأمرين ، زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، وأصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فمال حماة العقائد عليهم ، وجاء الغزالى [٢٩]ومن على طريقته فأخذوا جميع ماوجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات ومايتصل بها من الأمور العامة أو أحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجساد وجميع ماظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئا من مبانى الدين. واشتدوا فى نقده ، وبالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى كاد يصل السير الى ماوراء الاعتدال . فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة،وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامى من سعيهم

هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين ، كما تراه فى كتب البيضاوى [٣٠] والعضد [٣١] وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علماً واحداً ، والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ماهو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم.

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين

---

(٢٨) أى روح العصر وطابعه .

(٢٩) الاشاره هنا الى كتابه " تهافت الفلاسفة " .

(٣٠) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى ، المتوفى سنة ٧٩هـ

(٣١) هو العضد الايجى ، صاحب الموسوعة الشهيرة " المواقف" ، توفى سنة ٧٥" هـ " سنة ١٣٥٥ م .

الاسلامى . فانحرفت الطريق بسالكيها . ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب ، على أن ذلك فى قليل من الكتب إختارها الضعف وفضلها القصور.

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم . فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم . فوضعوا مالم يعد للإسلام قبل باحتماله ، غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ومن البعد عن ينابيع الدين أعواناً فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير ، وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوي العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا اسلام ، والدين من وراء مايتوهمون ، والله . جل شأنه، فوق مايظنون ومايصفون . ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم ،وبعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟؟ شر عظيم وخطب عميم .

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به فى نهاية أمره أيدى المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدوا به عن حده ، والذى علينا اعتقاده أن الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد لادين تفريق فى القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه ، وماوراء ذلك فنزعات شياطين أو شهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطله .

الغاية من هذا العلم : القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته . الواجب ثبوتها له ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد ، حسبما أرشدنا اليه الكتاب، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ، ومايمكن النفوذ اليه من دقائقه ، تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ، ونهانا عن التقليد بماحكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم ، وتبشيع ماكانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملى ، وحق ماقال ، فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولاتجمل بحال الانسان.

اقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة أقسام :

ممكن لذاته . وواجب لذاته .ومستحيل لذاته .

ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى ، أما الواجب فهو ماكان وجوده لذاته من حيث هي والممكن مالا وجود له ولاعدم من ذاته، وانما يوجد لموجود ويعدم لعدم سبب وجوده ، وقد يعرض له الوجود والاستحالة لغيره ، وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من

المجاز ، فان المعلوم حقيقة لابد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه ، وانما المراد ما يمكن الحكم عليه وان فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه .

حكم المستحيل

حكم المستحيل لذاته : أن لايطرأ عليه وجود ، فان العدم من لوازم ماهيته من حيث هى ، فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى عنها ، وهو يؤدى الى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة ، فالمستحيل لايوجد ، فهو ليس بموجود قطعاً ، بل لايمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا اليه، فهو ليس بموجود حتى ولا فى الذهن.

احكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته : أن لايوجد الا بسبب وأن لا ينعدم إلا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما الى ذاته على السواء ، فان ثبت له أحدهما بلاسبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة.

ومن أحكامه أنه إن وجد يكون حادثاً لأنه قد ثبت أنه لايوجد إلا بسبب ، فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده، والأول باطل ، وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة ، وهو

إبطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها ، فيؤدى إلي خلاف المفروض ، والثاني كذلك ، والإلزام يساويهما فى رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثانى موثر ترجيحاً بلا مرجح ، وهو مما لايسوغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح ، وهو باطل بالبداهة ، فتعين الثالث ، وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون حادثا ، اذ الحادث ماسبق وجوده بالعدم ، فكل ممكن حادث إن وجد.

الممكن لايحتاج فى عدمه الى سبب وجودى ، لأن العدم سلب ، والسلب لايحتاج الى إيجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه لعدم ما كان سببا فى بقائه ، أمّا فى وجوده فيحتاج الى سبب وجودى لأن العدم لا يكون مصدراً للوجود ، فالموجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد ، وذلك كله بديهى.

كما يحتاج الممكن للسبب فى وجوده ابتداء يحتاج إليه فى البقاء، لما بينا أن ذات الممكن لاتقتضى الوجود ،ولايرجح لها الوجود عن العدم الّا للسبب الخارجى الوجودي ، فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لايفارقه من حيث هى ، فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته ، فيكون فى جميع أحواله محتاجاً الى مرجح للوجود عن العدم ، لافرق بين الابتداء والبقاء .

معنى السبب على ماذكرنا منشأ الإيجاد ، ومعطى الوجود ، وهو الذى يعبر عنه بالموجد ، وبالعلة الموجدة ، وبالعلة الفاعلة ،

وبالفاعل الحقيقي ، ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذى يهيىء الممكن لقبول الإيجاد من موجده ، وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه فى الإبتداء ويستغنى عنه فى البقاء ، وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ، ومن هذا القبيل وجود البناء ، فإنه شرط فى وجود البيت ، وقد يموت البناء ويبقى بناؤه ، وليس البناء واهب الوجود للبيت، وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به ، وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شىء وبين استفادته الوجود من شىء فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى ، فإن الأولى ، ليست واهبة الوجود للثانية ، وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لاتوجد إلا إذا انعدمت الأولى ، أما إستفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لايقوم إلا به فلايستقل بنفسه دونه فى حال من الأحوال .

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد أن كانت ، كأشخاص النباتات والحيوانات ، فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة ، لاسبيل الى الأول لأن المستحيل لايطرأ عليه الوجود ، ولا الى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لايزول ، فلا يطرأ

عليه العدم ولايسبقه ، كما سيجيء فى أحكام الواجب : فهى ممكنة ، فالممكن موجود قطعاً.

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها ، فإما أن يكون عينها ، وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه ، وإما أن يكون جزأها ، وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببا لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ولنفسه فقط إن فرض أول وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب ، اذ ليس وراء الممكن إلّا المستحيل والواجب ، والمستحيل لايوجد ، فيبقى الواجب ، فثبت أن للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود.

وأيضاً الممكنات ، سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود إمّا أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات ، وهو باطل لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لاشيء من الماهيات الممكنة بمقتضٍ للوجود ، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة .

أحكام الواجب

صفات البرهان التى يجب الاعتقاد بها

القدم . . والبقاء . . ونفى التركيب

من أحكام الواجب : أن يكون قديماً أزلياً ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثاً ، والحادث ماسبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقاً بعدم وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود ، وإلّا لزم رجحان المرجوح بلا سبب ، وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا فى وجوده الى موجد غيره وقد سبق أن الواجب ماوجوده لذاته ، فلا يكون ما فرض واجبا ، وهو تناقض محال.

ومن أحكامه أن لايطرأ عليه عدم، وإلّا لزم سلب ماهو للذات عنها ، وهو يعود سلب الشىء عن نفسه ، وهو محال بالبداهة.

ومن أحكامه أن لايكون مركبا ، اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته ، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجوده جملة محتاجاً الى وجود غيره ، وقد سبق أن الواجب ماكان وجوده لذاته ، ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هى ذاته ، ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه ، بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هى الواجبة دونه .

نفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية ، فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب ، فان الأجزاء العقلية لابد لها من منشأ انتزاع فى الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج وإلّا كانت مافرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لاحقيقة.

كما لايكون الواجب مركبا لايكون قابلاً للقسمة فى أحد الامتدادات الثلاث ، أى لايكون له امتداد ، لأنه لوقبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الأول ، وصار الى وجودات متعددة ، وهى وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة ، فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق.

الحياة

معنى الوجود وإن كان بديهيا عند العقل لكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة.

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ماهو كمال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره ، وإلّا كان الوجود لمرتبة سواها ، وقد فرض لها . مايتجلى للنفس من مثل الوجود لاينحصر ، وأكمل مثال فى أى مراتبه ماكان مقرونا بالنظام والكون

على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمراً وإن فى النوع ، كان أدل على كمال المعنى الوجودى فى صاحب المثال.

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها.

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا ، وظهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها ، فهو يستتبع من الصفات الوجودية مايلائم تلك المرتبة العليا.

وكل ماتصوره العقل كمالا فى الوجود من حيث مايحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور ، وأمكن أن يكون له ، وجب أن يثبت له ، وكونه مصدرا للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا ، فيجب أن يكون ذلك ثابتا له ، فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة مايمكن أن يكون له .

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة ، وهى صفة تستتبع العلم والارادة ، وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة ، فان الحياة مع مايتبعها مصدر النظام ، وناموس الحكمة . وهى فى أى مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة ، فهى كمال وجودى ، ويمكن أن

يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن أن يثبت له ، فواجب الوجود حي ، وإن باينت حياته حياة الممكنات ، فان ماهو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والإرادة . ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات ماهو أكمل منه وجوداً ، وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه.

والواجب هو واهب الوجود ومايتبعه ، فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها .

العلم

ومما يجب له : صفة العلم ، ويراد به مابه انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة ، أي مصدر ذلك الانكشاف منه ، لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود ، ويمكن أن تكون للواجب ، وكل ماكان كذلك وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود عالم .

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ، ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالماً لكان فى الموجودات الممكنة ماهو أكمل من الموجود الواجب ، وهو محال كما قدمنا .

ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ، ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده .

علم الواجب من لوازم وجوده ، كما ترى ، فيعلو على العلوم علو وجوده عن الموجودات ، فلايتصور فى العلوم ماهو أعلى منه ، فيكون

محيطاً بكل مايمكن علمه ، والاتصور العقل علما أشمل وهو انما يكون لوجود أكمل ، وهو محال.

ماهو لازم لوجود الواجب يفنى بفنائه ويبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر الى شيء ما وراء ذاته ، فهو أزلى ، أبدى، غنى عن الآلات ، وجولات الفكر ، وأفاعيل النظر ، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة.

مايوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم ، وإلّا لم يكن علما.

ومن أدلة ثبوت العلم للواجب ماتشاهده فى نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ووضع كل شيء فى موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه فى وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجليى النظر مما يشاهد فى الأعيان ، كبيرها وصغيرها ، علويها وسفليها ، هذه الروابط بين الكواكب ، والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها ، والزام كل كوكب بمدار لوخرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية ، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره.

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها، وايتائها ماتحتاج اليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء، ووضع ذلك فى مواضعه من ابدانها ، وابداع غير الحساس منها ، كالنبات قوة الميل الى تناول مايناسبه من الغذاء دون مالا يلائمه، فترى بذرة الحنظل

تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد ، وتنمي بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد مايغذى المر الزعاف وهذه تتناول مايغدو حلو المذاق . وارشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء ، وسوق كل قوة من قواه الى ماقدرت له ، فهو الذى يعلم حال الجنين وهو نطفة أو علقة ، ويعلم بحاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمله ، الى الأيدى والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ، يستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادى عليه ،وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لاغنى عنها فى النمو والبقاء الى الأجل المحدود للشخص أو للنوع ، وهو الذى يعلم حالة الجروة من الكلاب ، مثلا ، وأنها متى كبرت تلد الجراء متعددة فيمنحها أطباء متكثرة (٣٢) ، وغير ذلك مما لايستطاع احصاؤه ، وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد مابذلوا من الجهد وماصرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث.

---

(٣٢) مفردها طبى ، بضم الطاء وكسرها مع سكون الباء ، وهو حلمه الوضع ، المراد هنا كثرة حلمات الكلبة كى ترضع الجراء الكثيرة في وقت واحد .

هذا الصنيع الذى انما تتفاضل العقول فى فهم أسراره ، والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء ، الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام ، وواضعاً لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الاكوان ، عظيمها وحقيرها ؟ كلا . . بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

الإرادة

مما يجب لواجب الوجود : الارادة ، وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة. بعد ماثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب ، وأنه عالم ، وأن مايوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ، ثبت بالضرورة أنه مريد ، لأنه إنما يفعل على حسب علمه . ثم أن كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة ، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للارادة إلا هذا.

أما مايعرف من معني الارادة ، وهو مابه يصح للفاعل أن ينفذ ماقصده ، وأن يرجع عنه ، فذلك محال فى جانب الواجب ، فان هذا المعنى من الهموم الكونية ، والعزائم القابلة للفسخ ، وهى من توابع

النقص فى العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

القدرة

ومما يجب له : القدرة ، وهي صفة بها الايجاد والإعدام . ولماكان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته ، فلا ريب يكون قادراً بالبداهة ، لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد أنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة الّا هذا السلطان .

الإختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، اذ لامعنى له إلّا إصدار الأمر بالقدرة على مقتضى العلم ، وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه مايصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة، وليس من مصالح الكون مايلزمه مراعاته لزوم تكليف ، بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد ، فيأتيه تنزها عن اللائمة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها ، فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكون ، واتقان الإبداع انما هو مظهر لسمو

مرتبة المبدع ، وبهذا الوجود البالغ اعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (٣٣) . وهذا هو معنى قولهم : إن أفعاله لا تعلل بالأغراض ، ولكنها تنزه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحكم ، وان خفى شيء من حكمتها عن أنظارنا.

الوحدة

ومما يجب له : صفة الوحدة ، ذاتاً ووصفاً ووجودا وفعلا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته ، خارجاً وعقلا ، وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لا يساويه فى حياته الثابتة له موجود ، فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس فى الموجودات مايساوى واجب الوجود في مرتبة الوجود، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات ، وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود ، وما يتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة ، وإلا لم يتحصل معنى التعدد ، وكلما

---

(٣٣) المؤمنون : ١١٥.

اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ماثبتت له بالبداهة ، فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها علم وارادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ، ويكون لكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها .

هذا التخالف ذاتي ، لأن علم الواجب وارادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر في الخارج ، فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته ، فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم ، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده ومايتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات، فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وارادته ولا مرجح لنفاذ أحد القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وارادتهم، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة ، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة ، وهو محال ، فلو كان فيهما آلهة إلّا اللّه لفسدتا ، ولكن الفساد ممتنع بالبداهة ، فهو ، جل شأنه ، واحد في ذاته وصفاته ، لاشريك له في وجوده ولا في أفعاله.

الصفات السمعية التى يجب الاعتقاد بها

ماقدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد إليه البرهان ، وجاءت به الشريعة الإسلامية ، وما تقدمها من الشرائع المقدسة ، لتأييده والدعوة الاسلامية بلسان نبينا محمد ، ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

ومن الصفات ماجاء ذكره على لسان الشرع ، ولا يحيله العقل اذا حمل على مايليق بواجب الوجود ولكن لايهتدى اليه النظر وحده ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما قرره الشرع، وتصديقا لما أخبر به .

الكلام

فمن تلك الصفات : صفة الكلام ، فقد ورد ان الله كلم بعض أنبيائه ، ونطق القرآن بأنه كلام الله. فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأنا من شئونه ، قديما بقدمه ، أما الكلام المسموع نفسه .المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف فى حدوثه ، ولا فى أنه خلق من خلقه . وخصص بالاسناد إليه لاختياره له سبحانه فى الدلالة على ماأراد بلاغه لخلقه ، ولأنه صادر عن محض قدرته ، ظاهراً وباطناً ، بحيث لامدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره ، والقول بخلاف ذلك مصادرة

للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه ، فإن الآيات التى يقرؤها القارىء تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت .

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها ، وليس فى القول بأن الله أوجد القرآن ، بدون دخل لكسب بشر فى وجوده ، مايمس شرف نسبته بل ذلك غاية مادعا الدين الى اعتقاده ، فهو السنة ، وهو ماكان عليه النبى ﷺ وأصحابه ، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة .

أما ما نقل إلينا من ذلك الخلاف الذى فرق الأمة وأحدث فيها الأحداث ، خصوصا فى أوائل القرن الثالث من الهجرة ، وإباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق ، فقد كان منشؤه مجرد التحرج ، والمبالغة فى التأدب من بعضهم ، وإلا فيجل مقام مثل الإمام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته (٢٤).

---

(٢٤) أي أن الحروف المكتوبة ، والاصوات المسموعة والمقروءة من فعل الانسان الكاتب والقارئ . أما المصدرالذي تعبرعنه هذه الحروف والاصوات ، والذي يعبر هو في ذات الوقت عن مراد الله فهو قديم .. وكثيرون من الاشعرية يرون هذا الرأي ، أنظر في ذلك فتوى للعز بن عبد السلام في (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي جـ٥ ص٨٦ . ٩٤ . ٨٩ طبعة القاهرة الأولى .

البصر والسمع

ومما ثبت له بالنقل : صفة البصر ، وهى مابه تنكشف المبصرات .

وصفة السمع ، وهى مابه تنكشف المسموعات . فهو السميع البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولاحدقة ولا باصرة .

كلام فى الصفات إجمالا

ابتدىء الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه ، وهو قوله ﷺ ﴿ تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى ذاته فتهلكوا ﴾ .

إذا قدرنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كما له انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجداناً أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها ، والإحاطة ببعض القواعد لعروض مايعرض لها ، أما الوصول الى كنه حقيقة فمما لاتبلغه قوته ، لأن اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى الى البسيط الصرف وهو لاسبيل الى اكتناهه بالضرورة ، وغاية مايمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره ، خذ أظهر الأشياء وأجلاها ، كالضوء : قرر

الناظرون فيه له أحكاماً كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ماهو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه ، وانما يعرف من ذلك مايعرفه كل بصير له عينان ، وعلى هذا القياس.

ثم ان الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات ، وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله ، ان كان سليما انما هى تحقيق نسبة تلك الخواص الى مااختصت به ، وادراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب، فالاشتغال بالاكتناه اضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه . اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء اليه ، وهى نفسه ، أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هى عرض أو جوهر ؟ هل هى قبل الجسم؟ أو بعده؟ هل هى فيه؟ أو مجردة عنه؟ .. كل هذه صفات لم يصل العقل الى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وانما مبلغ جهده انه عرف أنه موجود حى له شعور وارادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التى وصل إليها ببديهته ، أما كنه شيء من ذلك ، وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده، ولايجد سبيلاً للعلم به

هذا حال العقل الإنسانى مع مايساويه فى الوجود أو ينحط عنه، بل وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الأعلي؟ ماذا يكون إندهاشه ، بل إنقطاعه [٣٥] اذا وجه نظره الى مالا يتناهى من الوجود الأزلى الأبدى ؟؟.

---

(٣٥)الانقطاع هنا بمعنى العجز

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية، ويضيء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره، والى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ماهى عليه من النظام .

وتخالف الأنظار فى الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ، ولابد أن يظفر الحق ويعلو الباطل بتعاون الأفكار، أو صولة القوى منها على الضعيف.

أما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة، وهو ممتنع على العقل البشرى، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاول الى ما لاتبلغه القوة البشرية، من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة؟ لأنه سعى الى مالايدرك، ومهلكة لأنه يؤدى الى الخبط فى الإعتقاد، لأنه تحديد لما لايجوز تحديده، وحصر لما لايصح حصره .

لاريب أن هذا الحديث، وماأتينا عليه من البيان، كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول الى الإكتناه شاملان لها ، فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز، وماسبقه من الكتب، إلا بتوجيه النظر الي المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية، ما كيفية الإتصاف بها فليس من شأننا أن نبحث فيه.

فالذى يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود، لايشبه الكائنات، أزلى، أبدى، حى، عالم، مريد، قادر، منفرد فى وجوده، وفى صفاته، وفى صنع خلقه، وأنه متكلم، سميع، بصير، ومايتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه. أما كون الصفات زائدة على الذات، وكون الكلام صفة غير مااشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية،وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشئون التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لايجوز الخوض فيه، اذ لايمكن لعقول البشر أن تصل إليه، والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل وتغرير بالشرع، لأن استعمال اللغة لاينحصر فى الحقيقة، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لاتراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى، وإنما تلك مذاهب فلسفة، إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع. فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا.

أفعال الله
جل شأنه

أنعال الله صادرة عن علمه وارادته، كما سبق تقديره، وكل ماصدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار، ولاشيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته، فلاشىء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من : خلق، ورزق، واعطاء، ومنع، وتعذيب، وتنعيم، مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص، فلايطوفن بعقل عاقل - بعد تسليم أنه فاعل عن علم وارادة - أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته، كما هو الشأن فى لوازم الماهيات، أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا، فان ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة كما سبقت الإشارة إليه .

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق فى السير الى مقصد واحد، حتى اذا التقوا فى غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستنجد، فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على مابيده، فاستمر بينهم القتال، ولازالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى مابقى، وهم الناجون، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ماأملوا، ولوافتهم الغاية إخوانا بنور الحق مهتدين. نريد تلك المقالات المضطربة فى أنه يجب على الله رعاية

المصلحة فى أفعاله [٣٦]، وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده[٣٧]، ومايتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأعراض، فقد بالغ قوم فى الإيجاب حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين، يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وغلا آخرن فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لايرضونه إلّا قلبا يبرم اليوم مانقضه بالأمس، ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم، أو غافلاً لايشعر بما يستتبعه عمله.﴿سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون ﴾[٣٨]، وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين، جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله.

اتفق الجميع على أن أفعاله لاتخلو من حكمة، وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله، والكذب فى

---

(٣٦) وهو ما يعرف عند المعزلة من أن الله سبحانه يجب عليه فعل الصلاح والاصلح لعباده .

(٣٧) وهو أحد الاصول الخمسة عند المعتزلة ، سموه صدق الوعد والوعيد ، وأحالوا عليه أن يتخلف وعده للطائعين ووعيده للعاصين . انظر الفصل الذي كتبناه عن هذه الأصول الخمسة في بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) طبعة القاهرة سنة١٩٨٨م .

(٣٨) الصافات : ١٨٠ .

أقواله، ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ويتمارون فى الأوضاع، ولايدرى الى أى غاية يقصدون، فلنأخذ مااتفقوا عليه، ولنرد الى حقيقة واحدة مااختلفوا فيه.

حكمة كل عمل مايترتب عليه مما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً، خاصا كان أو عاماً، لو كشف للعقل من أى وجه لعقله، وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً، ومن يزعم للحكمة معنى لايرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة، وبداهة العقل. لايسمى مايترتب على العمل حكمة، ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلّا إذا كان مايتبع العمل مرادا لفاعله بالفعل، وإلّا لعد النائم حكيماً فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقرباً كاد يلسع طفلا، أو دفعت صبياً عن حفرة كاد يسقط فيها، بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة، والبداهة تأباه.

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العاقل تصان عن العبث. ولا يريدون من العاقل إلّا العالم بما يصدر عنه بإرادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لاتصدر إلّا لأمر يترتب عليها، يكون غاية لها، وإن كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهي الكمال فى العلم والحكم؟ كلها مسلمات لاينازع فيها أحد.

صنع الله الذى أتقن كل شيء، وأحسن خلقه، مشحون بضروب الحكم، ففيه ماقامت به السماوات والأرض وما بينهما ، وحفظ به نظام

الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذى يفضى به الى العدم ، وفيه ماستقامت به مصلحة كل موجود على حدته، خصوصاً ماهو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان، ولولا هذه البدائع من الحكم ماتيسر لنا الاستدلال على علمه.

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه ، وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة، أما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا . . لا يمكن القول بالثانى ، وإلا لكان قولاً بقصور العلم إن لم تكن معلومة أو بالغفلة إن لم تكن مرادة، وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء ، واستحالة غيبة أثر من آثار إرادته ، فهو يريد الفعل، ويريد مايترتب عليه من الحكمة، ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل.

ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل، مع العلم بارتباطها به. فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة، إذ لوصح توهم أن مايترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة ، كما سبق.

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وإرادته، وهو ما لانزاع فيه بين جميع المتخالفين، وهكذا يقال فى وجوب تحقيق ماوعد وأوعد به، فإنه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه ، وهو أصدق القائلين، وماجاء فى الكتاب والسنه مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار، حتى ينطبق الجميع على ماهدت

إليه البديهيات السابق إيرادها، وعلى مايليق بكمال الله ، وبالغ حكمته، وجليل عظمته، والأصل الذى يرجع إليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى :

﴿ ومَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، لَوْ أرَدْنَا أن نَتَّخذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ من لَدُنَّا إن كُنَّا فَاعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾(٣٩) وقوله :﴿لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّا ﴾أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق، الذى لايشوبه نقص، وهو محال، وإن فى قوله:﴿ إن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾، نافية، وهو نتيجة القياس السابق.

بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين: فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته، فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالى جوز الشرع إطلاقها فى جانب الله أم لم يجوز، فيسمى الحكمة غاية وغرضاً ، وعلة غائية، ورعاية للمصلحة، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن إطلاقه اسماً متى صح عنده معناه ، وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له، غير مبال بما يوهمه اللفظ.

---

(٣٩) الأنبياء - ١٦- ١٨.

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به، واعتقاد بشئون لإله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم، ويجب الإحتياط فى تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً فى جانبه، فيتبرأ من تلك الألفاظ، مفردها ومركبها، فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر واجالة الفكر، وهما من لوازم النقص فى العلم والغاية، والعلة الغائية والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته، وفيها مافى سوابقها، ولكن الله أكبر .. هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف فى المقال سبباً فى التفرقة بين المؤمنين، وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرق الى ماصاروا إليه من سوء الحال؟!.

افعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود، ولا يحتاج في ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله، ويقدرها بارادته، ثم يصدرها بقدرة مافيه، ويعد إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده، في مجافاته لبداهة العقل.

كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضا في بني نوعه كافة، متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه . وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط في مهلكة، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر في تقدير فعله، ويتخذ من خيبته أول أمره مرشداً له في الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين مايشتهي ، ان كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه فينبرى لمناضلته ، وتاره يتجه الى امر اسمى من ذلك ، ان لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله، كأن هب ريح فأغرق بضاعته، أو نزل صاعق فأحرق ماشيته ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذي منصب فعزل، يتجه من ذلك الى أن في الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لاتصل اليه سلطته ، فان كان قد هداه

البرهان وتقويم الدليل الى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد، يصرفه على مقتضى علمه وارادته، خشع وخضع ، ورد الأمر إليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لاينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات ، يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم بتصريف ماوهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا : هو صرف العبد جميع ما انعم الله به عليه الى ماخلق لأجله.

على هذا قامت الشرائع، وبه استقامت التكاليف، ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى اوامره ونواهيه أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ماقام عليه الدليل من إحاطة علم الله وارادته وقدرته، وبين ماتشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه، واشتغال بما لاتكاد تصل العقول إليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدءوا ، وغاية مافعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها

المطلق(٤٠) ، وهو غرور ظاهر، ومنهم من قال بالجبر وصرح به (٤١) ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه (٤٢) ، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي ، وهو عماد الإيمان.

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى الى الاشراك بالله، وهو الظلم العظيم ، دعوى من يلتفت الى معنى الاشراك على ماجاء به الكتاب والسنة، فالاشراك: اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ماوهبه الله من الاسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ماخرج عن قدرة المخلوقين. وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لايقدر العبد عليه، كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الادوية التي هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا . هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية:

---

(٤٠) هم المعتزلة ومن رأي رأيهم.

(٤١) وهم الجبرية الخلص ،وأول فرقهم «الجهمية» أتباع الجهم بن صفوان ، المتوفي سنة ١٢٨هـ ، وسارت على دربهم هذا فرق كثيرة. انظر الفصل الذي كتبناه عن الجبرية في بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية).

(٤٢) هم الاشعرية الذين لا يغني عنهم قولهم بالكسب شيئا من الاتفاق في نهاية المطاف مع الجبرية . انظر في ذلك بحثنا السابق أيضاً .

الأول : أن العبد يكسب بارادته وقدرته ماهو وسيلة لسعادته.

والثانى : أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات، وأن من آثارها مايحول بين العبد وبين انفاذ مايريده، وان لاشىء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه.

جاءت الشريعة لتقرير ذلك، وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه الى اتمام عمله، بعد احكام البصيرة فيه ، وتكليفه بان يرفع همته الى استمداد العون منه وحده ، بعد أن يكون قد أفرغ ماعنده من الجهد فى تصحيح الفكر واجادة العمل. ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك.

وهذا الذى قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الاعمال بما عجبت له الأمم. وعول عليه من متأخرى أهل النظر أمام الحرمين الجوينى، رحمه الله، وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه.

أكرر القول بأن الإيمان بوحدانية الله لايقتضى من المكلف الا اعتقاد أن الله صرفه فى قواه، فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته، ولها وحدها السلطان الأعلى فى اتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لايعلمه ولايدخل تحت إرادته.

أمّا التطلع الى ماهو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان، كما بينا ، وانما هو من شره العقول فى طلب رفع الاستار على الأسرار،

ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوة العلم، والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما أطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ماهم. على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء، ويخص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ماضل قوم وأضلوا، وكان لمقالاتهم أسو أ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم، لو شئت لقربت البعيد فقلت: ان من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع علي ماهى عليه فى العيان ، ولايكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلزمه خواص، وكذا الحال فى تميز الأشخاص ، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ماهى عليه، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه.

إختيار الإنسان

ومن تلك الأنواع الانسان، ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات، أن يكون مفكراً مختاراً فى عمله على مقتضى فكره، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكاً أو حيواناً آخر، والفرض أنه الانسان، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل.

ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته، وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا، وهو خير يثاب عليه، وان عملاً أخر يعاقب عليه. عقاب الشر والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار،

فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب ، وكون ما في العلم يقع لامحالة إنما جاء من حيث هو الواقع، والواقع لايتبدل، ولنا في علومنا الكونية أقرب الأمثال: شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لامحالة، لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة، وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في إختياره، لا بالمنع ولا بالإلزام، فانكشاف الواقع للعالم لايصح في نظر العقل ملزماً ولا مانعاً، وانما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ. ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن لايبعد عن عقل ألف النظر الصحيح، ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية، لكن يمنعني عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه في صحة الإيمان وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر في ذاته مهما بالغ المعبر في الإيضاح عنه، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه، ولايريدونه الّا موافقاً لما يعتقدون، فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته وان أدى ذلك الى جحد العقل برمته، فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم: ويل للخابط، ذلك قلب لسنة الله في خلقه، وتحريف لهديه في شرعه، عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف، وما أقمنا إلّا على معروف. ولاحول ولاقوة إلّا بالله العلي العظيم.

حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الإنسانية الاختيارية لاتخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا، وماتنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ماتنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا، وذلك بديهى لا يحتاج الى دليل.

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها، فإن اختلفت مشارب الرجال فى جمال النساء، أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال، فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار، وتنضيد أوراق النباتات والأشجار، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الإئتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض، ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها، وانقطاع البعض الآخر على غير نظام، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاباً، ومن القبيح اشمئزازاً أو جزعاً، وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم بإحدى تلك الحواس.

ليس هذا موضع تحديد ماهو الجمال وما هو القبح فى الأشياء، ولكن لايخالفنا أحد فى أن من خواص الإنسان، بل وبعض الحيوان، التمييز بينهما، وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف

أنواعها ، وبه ارتقى العمران فى أطواره إلى الحد الذى تراه عليه الآن، وان اختلفت الأذواق ففى الأشياء جمال وقبح.

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق، ولعله لاينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح مايلم به العقل من الموجودات المعقولة، وان اختلف اعتبار الجمال فيها، فالكمال فى المعقولات كالوجود والواجب، والأرواح اللطيفة، وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه، وتنبهر له بصائر لاحظيه، وللنقص قبح لاتنكره المدارك العالية، وان اختلف أثر الشعور ببعض أطواره فى الوجدان من أثر الاحساس بالقبيح فى المحسوسات ، وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل، والسقوط فى الهمة، وضعف العزيمة؟؟ ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها ويفخرون أحياناً بأنهم متصفون بأضدادها.

وقد يجمل القبيح بجمال أثره، ويقبح الجميل بقبح مايقترن به، فالمر قبيح مستشبع، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر، لكن أثر المر فى معالجة المرض، وعدل الدميم فى رعيته، أو إحسانه إليك فى خاصة نفسك، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته، فان جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه، فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل. ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو اذا أمر، واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأضر.

هل يمكن لعاقل أن لا يقول فى الأفعال الإختيارية كما قال فى الموجدات الكونية، مع أنها نوع منها، وتقع تحتَ حواسنا ومداركنا العقلية، إما بنفسها وإمّا بأثرها، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما يرد عليها من صور الكائنات؟؟ . . كلا . . بل هى قسم من الموجدات، حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة،

فمن الأفعال الاختيارية ماهو معجب فى نفسه، تجد النفس منه ماتجد من جمال الخلق، كالحركات العسكرية المنتظمة، وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم "بالجمناستيك" ، وكإيقاعات النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها، ومنها ماهو قبيح فى نفسه، يحس منه مايحس من رؤية الخلق المشوه، كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع، وكولولة النائحات ونقع[٤٣] المذعورين.

ومنها ماهو قبيحِ لما يعقبه من الألم، وماهو حسن لمايجلب من اللذه أو دفع الألم، فالأول كالضرب والجرح وكل مايؤلم من أفعال الانسان، والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش، وكل مايحصل لذة أو يدفع ألماً مما لايحصى عده، وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى مايلذّ والقبيح بمعنى المؤلم.

---

(٤٣) من معانية ارتفاع الصوت والغبار ، وشق الجيوب .

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود، اللهم إلا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح.

ومن الأفعال الاختيارية مايحسن باعتبار مايجلب من النفع، ومايقبح بمايجر إليه من الضرر ، ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر، اللهم إلا من أحط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية فى هبة الفكر.

فمن اللذيذ مايقبح لشئوم عاقبته، كالإفراط فى تناول الطعام والشراب، والانقطاع الى سماع الأغانى، والجرى فى أعقاب الشهوات، فان ذلك مفسدة للصحة، مضيعة للعقل، متلفة للمال، مدعاة للعجز والذل، وإنما قبح اللذيذ فى هذا الموضع لقصر مدته، وطول مدة مايجر إليه عادة من الآلام التى قد لاتنتهى إلا بالموت على أسوأ حالاته، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم..

ومن المؤلم مايحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق، وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف، ومجاهدة الشهوات ، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة، إن عدت الحياة مثاراً لها.

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسناً مقارعة الإنسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غيره، للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره، ومنهم بنوأبية أو قبيلته أو شعبه أو أمته، حسب ارتقائه فى الاحساس، ومخاطرته حتى بحياته فى سبيل ذلك، كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وإن لم يحددها عقله.

ومنه معاناة التعب فى كشف ماعمى عن علمه من حقائق الكون، كأنه لايرى المشقة فى ذلك شيئاً بالقياس الى مايحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة.

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ماكسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس الحقود عليه أو ماله، لما فى ذلك من جانب المخافة العامة حتي على ذات المعتدى ويمكنك من نفسك استحضار مايتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها.

كل هذا عرفه العقل البشرى، وفرق فيه بين الضار والنافع، وسمى الأول فعل الشر والثانى عمل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة، وقد حددهما النظر الفكرى علي تفاوت فى الإجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين، وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه فى هذه الحياة، كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوتها ، وان كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر.

كل هذا من الأوليات العقلية، لم يختلف فيه ملى ولافيلسوف. فللأعمال الاختيارية، حسن وقبح فى نفسها، او باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ماحسن منها وماقبح بالمعانى السابقة، بدون توقف على سمع.

والشاهد على ذلك ماتراه فى بعض أصناف الحيوان ومانشهده من أفاعيل الصبيان قبل تعقل مامعنى الشرع، وماوصل إلينا من تاريخ الإنسان وماعرف عنه فى جاهليته.

ومما يحسن ذكره هنا ماشاهده بعض الناظرين فى أحول النمل، قال : كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها ، فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل. فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب، فأمرت بهدمه، فهدم، ورفع البنيان الى الحد الموافق، ووضع السقف على أرفع مما كان، وذلك من انقاض السقف القديم. وهذا هو التمييز بين الضار والنافع، فمن زعم أن لاحسن ولاقبح فى الأعمال على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل، بل عدّها أشد حمقاً من النمل.

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل.. فإذا وصل مستدل ببرهانه الى إثبات الواجب وصفاته الغير السمعية، ولم تبلغه بذلك رسالة، كما حصل لبعض أقوام من البشر، ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل فى الانسان يبقى بعد موته، كما وقع لقوم آخرين، ثم انتقل من هذا مخطئاً أو مصيباً،

الى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء، ثم قال: ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله وبالفضائل، وانها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل. وبنى على ذلك أن من الأعمال ماهو نافع للنفس بعد الموت لتحصيل السعادة ومنها ماهو ضار لها بعده بإيقاعها فى الشقاء، فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله: إن معرفة الله واجبة، وان جميع الفضائل ومايتبعها من الأعمال مفروضة، وان الرذائل ومايكون عنها محظورة؟؟ وان يصنع لذلك مايشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل مايعتقد، والى أن يأخذ من الأعمال بمثل مايأخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه. أمّا أن يكون ذلك حالاً لعامة الناس، يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة، وان الفضائل مناط السعادة فى الحياة الأخرى، والرذائل مدارالشقاء فيها، فمما لايستطيع عاقل أن يقول به، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه.

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أسد مثلاً، وكان ماوهب له من الفكر واقفاً عند حد ما إليه الحاجة، لاهتدى الى المنع واتقاء المضار على وجه لايختلف فيه أفراده، لسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر، ولجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع. لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لايكون لحاجته حد، ولاتختص معيشته بجو من الأجواء ولا بوضع من الأوضاع، وأن يوهب

من القوى المدركة مايكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته، في أي اقليم، وعلى أي حال، وان يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لاتنتهي درجاته، ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات إلّا باستقامة القامة وعرض الأظفار.

وهبَ الله الإنسان او سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة، والمخيلة، والمفكرة.

فالمذكرة: تثير من صور الماضي ماستره الاشتغال بالحاضر، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ماتنبه إليه الأشياء أو الأضداد الحاضرة، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكره بضده، كما هو بديهي.

والخيال: يجسم من المذكور، ومايحيط به من الأحوال، حتى يصير كأنه شاهد، ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ماذهب به الماضي، ويهمز للنفس في طلبه أو الهرب منه فتلجأ الى الفكر: في تدبير الوسيلة إليه.

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان، ومنها ينبوع بلائه . فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلاً في حال مسرف انفق ماله في غير نافع، وضاقت يده عما يقيم معيشته ، فيذكر ألما لحاجة مضت، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع

به النفس من اللذة به ودفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره، بإعطاء المضطر مايذهب بضرورته، ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لايتعلق بها حق من حقوق غيره، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ماوهبه الله من القوى فى نفسه وماسخره له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن ستن الاعتدال ، يرى مالا مثلا فى يد غيره، فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ، ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل، ولايزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع فى ظل الخيال عن طريق الفكر فيستر عنه ماطاب من وجوه الكسب، انما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه ، لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له، وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلايسهل عليه ولاعلى غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله .

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعاً على نحو مابيناه فى المثالين، فلقوة الذاكرة وضعفها. ولحدة الخيال واعتدالة، وأعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر، بل وفى الذكر.

فالناس متفقون على أن من الأعمال ماهو نافع، ومنها ماهو ضار، وبعبارة أخرى : منها ماهو حسن ومنها ماهو قبيح، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه أصابة وجه الحق فى معرفة ذلك. ومتفقون كذلك على أن الحسن ماكان أدوم فائدة وان كان مؤلماً فى الحال، وأن القبيح ماجر الى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به، وان عظمت لذته الحاضرة، ولكنهم يختلفون فى النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع مايكتنف بهم، فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجه، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقى ضاراً.

فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه سعادته فى هذه الحياة، اللهم إلّا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فان كان لهم من الشأن العظيم مابه عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال، وقد سبقت الاشارة اليهم فيمامرّ.

وليست عقول الناس سواء فى معرفة اللّه تعالى، ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة، فهم وإن اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم، وانحرفت بها عن مسلك السعادة، فليس فى سعة العقل الانسانى فى الافراد كافة أن يعرفه من اللّه مايجب أن يعرف، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ماينبغى أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من

الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة، وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل، ونور البصيرة، وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى، ولو بلغه لكان أسرع أتباعه ، وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير مايليق فى الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الإلهى.

ثم من أحوال الحياة الأخرى مالايمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده، وهو تفصيل اللذائذ والآلام، وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما ، ومن الأعمال مالايمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لافى هذه الحياة ولافيما بعدها، كصور العبادات ، كما يرى فى أعداد الركعات، وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الإسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية ، كل ذلك مما لايمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ، ويعلم الله أن فيه سعادته.

لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجاً، فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية الى ماهو خير له فى الحياتين، الى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ماينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة ، ولايكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه ، ليفهم منه أو عنه مايقول، وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ماعرف فى العادة وماعرف فى سنة الخليقة، ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ماهى عليه، ويعلم صفاته الكمالية، وماينبغى أن

يعرف منها، والحياة الآخرة، وما أعد فيها، فيكون الفهم عنه، والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير، معيناً للعقل عل ضبط ماتشتت عليه، أو درك ماضعف عن ادراكه، وذلك المعين هو النبى.

النبوة تحدد ماينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات ، ومايحتاج اليه البشر كافة من ذلك، وتشير الى خاصتهم بمايمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم من مقامات عرفانهم، لكنها لاتحتم إلا مافيه الكفاية العامة، فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله، ووحدانيته، وبالصفات التى أثبتناها، على الوجه الذى بيناه، وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك، فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص، وحسن المعرفة، وحظر الجهالة والجحود بشىء أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه مما لايعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس، ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة، فان زيد على ذلك أن العرفان، على مابينه الشرع، يستحق المثوبة المعينة فيه، وضده يستحق العقوبة التى نص عليها، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة، غير أن ذلك لاينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها، وإنما جاء الشرع مبيناً للواقع، فهو ليس محدث الحسن، ونصوصه تؤيد ذلك، واذكر مثالاً من كثير:

قال تعالى على لسان يوسف ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤٤) يشيرون بذلك إشارة واضحة الى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم، وهو يذهب بكل قوته الى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفى ذلك فساد نظامهم كمالايخفى ، أما إعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد،يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوتهم، وهى قاعدة سعادتهم، واليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان، فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحسن فيه.

النبوة تحدد أنواع الأعمال التى تُناط بها سعادة الإنسان فى الدارين، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها، وكثيراً ماتبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه، فوجوب عمل من المأمور به، أو الندب إليه، وحظر عمل، أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا، ومجازى عليه بعقوبة كذا، مما لايستقل العقل بمعرفته، بل طريقة معرفته شرعية، وهو لاينافى أيضاً أن يكون المأمور به حسنا فى ذاته، بمعنى أنه مما يؤدى الى منفعة دنيوية أو أخروية، باعتبار أثره فى أحوال المعيشة، أو فى صحة البدن أو حفظ النفس أوالمال أو

---

(٤٤) يوسف: ٣٩ .

العرض أو فى زيادة تعلق القلب بالله، جلّ شأنه، كما هو مفصل فى الاحكام الشرعية. وقد يكون من الأعمال مالايمكن درك حسنه، ومن المنهيات مالايعرف وجه قبحه، وهذا النوع لاحسنَ له الا الأمر ولاقبح إلّا النهى. والله أعلم .

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة، بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الانسان وموفيه مالاغنى له عنه، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجتها،.ووقاء وجودها، على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود.

والكلام فى هذا البحث من وجهين:

الأول : وهو أيسرهما على المتكلم، وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلاً من البشر، مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده، وتفصيل لأحكامه فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها، وفى مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها، وأن يعتقد بوجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم، والإئتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه، وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ماأراد أن يبلغوه من الخير عنه ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها، وأن هذه الكتب التى نزلت عليهم حق، وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لايعهد للعقول

ولا للاستطاعة البشرية، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه،. فمتى ادعى الرسول النبوة، واستدل عليها بالمعجزة، وجب التصديق برسالته.

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم، وصحة عقولهم ، وصدقهم فى أقوالهم، وأمانتهم فى تبليغ ماعهد إليهم أن يبلغوه، وعصمتهم من كل مايشوه السيرة البشرية، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة، وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المتقدمة، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لايمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية.

أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم مايعترى سائر أفراده، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام، ويمرضون وتمتد إليهم أيدى الظلمة، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتلون.

المعجزة

المعجزة : ليست من نوع المستحيل عقلاً، فإن مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع، كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات، مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف.

فإن قيل : ان ذلك لابد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعى ، قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية مافى الأمر أننا لاتعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده.

على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار، يسهل علينا العلم بأنه لايمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة، وتابعاً لأى سبب، إذا سبق فى علمه أنه يحدث كذلك.

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده، لأن النبى يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له فى تلك الدعوى، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب، فإن تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله. فمتى ظهرت المعجزة، وهى مما لايقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة، علم بالضرورة أن الله ماأظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة.

وأما السحر وأمثاله فإن سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات، فهى لاتعلو عن متناول القوى الممكنة، فلايقارب المعجزة فى شيء.

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء، فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر،

أو مس عقولهم شيء من الضعف، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهى الذى يفوق كل اختصاص: اختصاصهم بوحيه، والكشف لهم عن اسرار علمه ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى انكار دعواهم، ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم، ولكانوا مضلين لامرشدين، فتذهب الحكمة من بعثهم، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام.

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل فى التشريع، فجوزه بعضهم، والجمهور على خلافه، وما ورد من مثل أن النبى ﷺ ، نهى عن تأبير النخل، ثم إباحه لظهور أثره فى الاثمار، فإنما فعله عليه الصلاة والسلام ، ليعلم الناس أن مايتخذونه من وسائل الكسب، وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم، ولاحظر عليهم فيه مادامت الشرائع مرعية والفضائل محمية. وماحكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفى فيه سر النهى عن الأكل، والمؤاخذة عليه، وغاية ماعلمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الأرض ببنى آدم . كان النهى والأكل رمزان الى طورين من أطوار آدم، عليه السلام، أو مظهران من مظاهر إقامة الدليل العقلى أو إصابة دليل شرعى يقطع بماذهب إليه الجمهور.

حاجة البشر الى الرسالة

(الوجه الثانى) : سبق لك فى الفصل السابق مايهم الكلام عليه من الوجه الأول، وهو وجه مايجب على المؤمن اعتقاده فى

الرسل، والكلام فى هذا الفصل موجه، ان شاء الله ، الى بيان الحاجة إليهم، وهو معترك الأفهام، ومزلة الأقدام، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام.

ولسنا بصدد الإتيان بما قاله الأولون، ولاعرض ماذهب إليه الآخرون، ولكنَّا نلزم ماالتزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد، والذهاب إليه من أقرب الطرق، من غير نظر الى مامال إليه المخالف أو استقام عليه الموافق، اللهم إلَّا إشارة من طرف خفى أو إلماعاً لايستغنى عنه القول الجلى.

وللكلام في بيان الحاجة الى الرسل مسلكان:

الأول : وقد سبق الاشارة إليه يبتدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت، وأن حياة أخرى بعد الحياة الدنيا، تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء فى حياته الفانية، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات.

اتفقت كلمة البشر، موحدين ووثنيين ، مليين وفلاسفة، إلَّا قليلاً لايقام لهم وزن، على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لاتموت موت فناء مطلقا وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وان اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيما

تكون عليه النفس وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه، فمن قائل : بالتناسخ(٤٥) فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال .

ومنهم من قال: إنها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها من المادة، حافظة لما فيه لذتها أو مابه شقوتها.

ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية الطف من هذه الأجسام المرئية. وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين، وفيما هو متاع الحياة الآخرة، وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم. وتضارب آراء الأمم فيه، قديماً وحديثاً، مما لاتكاد تحصى وجوهه.

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة، المنبث فى جميع الأنفس، عالمها وجاهلها، وحشيها ومستأنسها، باديها وحاضرها، قديمها وحديثها ، لايمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية،

---

(٤٥) نظرية قديمة . قال بها فيثاغورس ، أخذا عن الفلسفة الهندية ، وهي تعنى انتقال النفس بعد الموت إلى جسم آخر ، سواء أكان نباتا أوحيواناً أو انسانا ، ومن المتصوفة من يرى تقسيم التناسخ بحسب ما تنتقل إليه النفس .فإذا انتقلت من انسان إلى انسان سمى «نسخا» . وإذا انتقلت من انسان إلى نبات سمى «فسخا». وإذا انتقلت من انسان إلى جماد سمى «رسخا» ... انظر (المعجم الفلسفى) للدكتور مراد وهبة (وآخرين) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م مادة «تناسخ» .

وإنما هو الإلهامات[٤٦] التي اختص بها هذا النوع، كما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا.

وإن شذ أفراد منه، ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد فى عمل ما، أو إلى أنه لايمكن للعقل أن يوقن باعتقاد، ولا الفكر أن يصل الى مجهول بل قالوا أن لاوجود للعالم إلافى إختراع الخيال وأنهم شاكون حتى فى أنهم شاكون[٤٧].

ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكروالعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الأجل المحدود.

كذلك قد ألهمتْ العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود، بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حياً باقيا فى طور آخر وإن لم يدرك كنهه.

ذلك الهام عقلى يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية، من طرق غير

---

(٤٦) المراد هنا «بالالهامات»: الشعور العام الموجود من أصل الفطرة، وليس «الالهامات» بمعنى ما يقابل «المعقولات» وسيأتي الحديث عن هذا المعنى الأخير فيما بعد.

(٤٧) الاشارة إلى ملهب «اللا أدرية» الذين ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة.

محصورة، شيقة الى لذائذ غير محدودة، ولا واقفة عند غاية، مهيأة لدرجات من الكمال لاتحددها أطراف المراتب والغايات، معرضة لآلام من الشهوات، ونزعات الأهواء، ونزوات الأمراض على الأجساد، ومصارعة الأجواء والحاجات، وضروب من مثل ذلك لاتدخل تحت عد ولاتنتهى عند حد. الهام يستلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للأنواع إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء، ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف، فمن كان استعداده لقبول مالايتناهى من معلومات وآلام وللذائذ وكمالات لايصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات.

شعور يهيج بالأرواح الى تحسس هذا البقاء الأبدى، وماعسى أن تكون عليه متى وصلت إليه، وكيف الاهتداء، وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل. شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد، وتقضاء الأزمنة والاعصار فى تقويم الأنظار، وتعديل الأفكار، وإصلاح الوجدان، وتثقيف الأذهان، ولاتزال الى الآن من هم من هذه الحياة الدنيا فى اضطراب، لاندرى متى نخلص منه، وفى شوق الى طمأنينة لاتعلم متى ننتهى إليها.

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب؟ وهل فى طرق الفكر مايوصل كل أحد الى

معرفة ماقدر له فى حياة يشعر بها، وبأن لامندوحة عن القدوم عليها، ولكن لم يوهب من القوة ماينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها، والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ماهو فيه. أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون؟؟ ، هل فى أساليب النظر مايأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك؟؟.

كلا . . . فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ،ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة.

أفليس من حكمة الصانع الحكيم ـ الذي اقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم ، الذي خلق الانسان وعلّمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم ، والكتاب للتراسل ـ أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها ، بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، يميزهم بالفطر السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ،والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون

من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه ، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول افهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة ، تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاحق علمه بأعماق ضمائرهم فى اجماله . ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ، ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين .

لاريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وجاد على كل حى بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بهاغيره ، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه .

يقول قائل : ولم لم يودع فى الغرائز ماتحتاج اليه من العلم؟، ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الآخرة؟ وماهذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم،

وهو قول يصدر عن شطط العقل، والغفلة عن موضوع البحث، وهو النوع الانسانى ، ذلك النوع على مابه، ومادخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر، وماإقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده، وأن لايكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه،وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال، فلو الهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع، بل كان إمّا حيوانا آخر كالنحل والنمل أو ملكاً من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض.

المسلك الثاني: فى بيان الحاجة الى الرسالة يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه: أرتنا الأيام، غابرها وحاضرها، أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع إلى بعض الغابات أو إلى رؤوس الجبال، ويستأنس الى الوحش، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات، ويأوى الى الكهوف والمغاور، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والأشجار، ويكتفى من الثياب بما يخصف[48] من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر، ولايزال كذلك حتى يفارق الدنيا.

لكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدَّبْر - [49]- وتعيش عيشة لاتتفق مع ماقدر لنوعها، وانما الانسان نوع

---

(٤٨) يلصق ويطبق .

(٤٩) الدبر ، بفتح الدال المشددة وسكون الباء : جماعة النحل والزنانبير .

من تلك الأنواع التى غرز فى طبعها أن تعيش مجتمعه ، وإن تعددت فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه، وللمجموع من العمل مالا غنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعور مابحاجة الى سائر أفراد الجماعة التى يشملها اسم واحد، وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك، فلا حاجة الى الإطالة فى بيانه، وكفاك من الدليل على أن الإنسان لايعيش إلا فى جملة ، ماوهبه من قوة النطق، فلم يخلق لسانه مستعداً لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات إلّا لاشتداد الحاجة به إلى التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلّا الشهادة بأن لاغنى لأحدهم عن الآخر.

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لايشتبه فيه، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة الى الأيدى العاملة، فتمتد الحاجة، وعلى أثرها الصلة، من الأصل الى العشيرة، ثم الى الأمة، والى النوع بأسره، وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع، كما لايخفى هذه الحاجة ـ خصوصاً فى الأمة التى حققت عنوانها لها ـ صلات وعلائق ميزتها عمن سواها، حاجة فى البقاء ، حاجة فى التمتع بمزايا الحياة ، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع.

لو جرى أمر الانسان على أساليب الخلقة فى غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده، عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل.

فالكل منها بمنزلة بعض قواها، المسخرة لمنافعها، ودرء مضارها، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً لنظام الأمم وروحاً لبقائها، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون، فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب، أو ماتحب، فإن اشتدت كانت ولعاً وعشقاً.

لكن . . . كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ماهو فيها لايفارقها، ولايكون هذا النوع منها فى الانسان إلّا إذا كان منشؤه أمراً فى روح المحبوب وشمائله التى لاتفارق ذاته، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه، فإذا عرض التبادل والتعاوض، ولوحظ فى العلاقة بينهما، تحولت المحبة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع، وقام بين الشخصين مقام المحبة إمّا سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين.

يحب الكلب سيده ويخلص له، ويدافع عنه دفاع المستميت، لما يرى أنه مصدر الاحسان إليه فى سداد عوزه، فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكلفها له، فهو يتوقع فقدها بفقده، فيحرص عليه حرصه على حياته، ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضاً لخطر ماعادت إليه تلك

الصورة يصل بعضها بعضاً ، واندفع الى خلاصة بما تمكنه القوة، ذلك أن الالهام الذي هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب، فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره وليس له وراءها مذهب فحاجته في سد عوزه هي حاجته الى القائم بأمره، فيحبه محبته لنفسه، ولا يبخس منها شوب التعاوض في الخدمة.

أمّا الانسان ـ وماأدراك ماهو ـ فليس أمره على ذلك، ليس ممن يلهم ولايتعلم، ولا ممن يشعر ولايتفكر، بل كان كماله النوعي في إطلاق مداركه عن القيد، ومطالبه عن النهايات، وتسليمه على صغره الى العالم الأكبر على جلالته وعظمه، يصارعه بعوامله، وهي غير محصورة، حتى يعتصر منه منافعه، وهي غير محدودة، وإبداعه من قوى الادراك والعمل مايعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه، ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن ممّا يصل إليه لذة، ويجوار كل لذة ألم أو مخافة، فلاتنتهي رغائبه الى غاية، ولاتقف مخاوفه عند نهاية: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٥٠).

تفاوتت أفراده في مواهب الفهم، وفي قوى العمل، وفي الهمة والعزم، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلاً، المتطاول في الرغبة شهوة وطمعاً يرى في أخيه أنه العون له على مايريد من شئون وجوده، لكنه

---

(٥٠) المعارج : ٢٠.

يذهب من ذلك الى تخيل اللّذة فى الاستئثار بجميع مافى يده، ولايقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله، وقد يجد اللّذة فى أن يتمتع ولايعمل، ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وإن لم ينفع، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لاضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته، ولا يبالى بإرساله الى عالم العدم بعد سلبه، فكلّما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة، أو الوصول الى لذيذ، فتح له الفكر باباً من الحيلة، أو هيأ وسيلة لاستعمال القوة، فقام التناهب مقام التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق، وصار الضابط لسيرة الانسان: إما الحيلة وإما القهر.

اللذة الروحانية

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية، وتجالد أفراده طمعاً فى وصول كل الى مايظنه غاية مطلبه، وان لم تكن له غاية؟؟.

كلا . . ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما، حسبما يمتد إليه نظره، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكاناً كاد لاتصعد إليه سائر اللذات، وهى من أفضل العوامل فى

إحراز الفضائل، وتمكين الصلات بين الافراد والأمم، لو صرفت فيما سيقت لأجله، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا إليها من التفاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة، حتى خيل للكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته فى القلوب بإخافة الآمن وإزعاج الساكن واشعار القلوب رهبة المخافة لاتهيب الحرمة.

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم، ورفد بعضهم بعضاً فى الأعمال؟ أو لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها، سبباً فى تفانيهم؟ لاريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال، فلابد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ماينوب منابها.

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل، وظنو، كما ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة، أن العدل نائب المحبة.

نعم . . لايخلو القول من حكمة، ولكن . . من الذى يضع قواعد العدل، ويحمل الكافة على رعايتها؟!. . قيل: ذلك هو العقل، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء، كذلك تكون وسائل السعادة، وفيها مستقر السكينة، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم يذهب بكثير من الناس الى ماوراء حجب الشهوات، وتعلو بهم فوق ماتخيله المخاوف ، فيعرفون لكل حق حرمته، ويميزون بين لذة مايفنى ومنفعة مايبقى، وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة، وضعوا أصول الفضيلة، وكشفوا وجوه الرذيلة، وقسموا

أعمال الانسان الى مايحضر لذته وتسوء عاقبته، وهو مايجب اجتنابه، والى ماقد يشق احتماله ولكن تسر مغبته، وهو مايجب الأخذ به. ومنهم من أنفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله، وقضى شهيد اخلاصه فى دعوة قومه الى مايحفظ نظامهم، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها، وبذلك يستقيم أمر الناس.

هذا قول لايجافى الحق ظاهره، ولكن . . هل سمع في سيرة الانسان، وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب؟ وهل كفى فى اقناع جماعه منه، كشعب أو أمة، قول عاقلهم: أنهم مخطئون، وأن الصواب فيما يدعوهم إليه، وإن أقام على ذلك من الأدلة ماهو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء؟؟ .

كلا .. لم يعرف ذلك فى تاريخ الانسان، ولا هو مما ينطبق على سنته. فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الإدراك، وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الأصول، ولايعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل، فمجرد البيان العقلى لايدفع نزاعا، ولايرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ماوضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته، فتذهب حرمتها، ويتهدم بناؤها، ويفقد ماقصد بوضعها.

الحاجة الأخروية

أضف الى ماسبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية، وأشد لزوما لها: كل انسان، مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته، يجد من نفسه انه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مّا حوله، وانه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ماهو فيه من العوالم فى وجوه قد لايعرفها معرفة العارفين، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين. تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها إلّا الطريق التى حددت لنوعها، وهى طريق النظر، فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات، لكثرة نفعها أو شدة ضررها، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب، لظهور أثرها، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار، لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له اثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة، تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع، فجعل لكل نوع إلها.

ولكن ... كلما رق الوجدان، ولطفت الأذهان، ونفذت البصائر، ارتفع الفكر، وجلت النتائج، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة، واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود، غير أن من أسرار الجبروت ماغمض عليه، فلم يسلم من الخبط

فيه، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه مايحملهم على الإهتداء بهديه، فبقى الخلاف ذائعا والرشد ضائعاً.

اتفق الناس فى الإذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم، ولكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة الى الإذعان له، اختلافاً كان أشد أثراً فى التقاطع بينهم، وإثارة أعاصير الشقاء فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضار، لغلبة الشهوات عليهم.

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش فى جملة، ولم يمنح من تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلاً من الإلهام الهادى الى مايلزم لذلك، وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ماسبق، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته، ولم يفض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولاصفاته وإنما ألقى به فى مطارح النظر تحمله الأفكار فى مجاريها، وترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى، وفى كل ذلك الويل على جامعته، والخطر على وجوده، فهل منى هذا النوع بالنقص، ورزىء بالقصور عن مثل مايلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود؟؟.. نعم . . هو كذلك، لولاما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه.

الوصل والوصالة

الانسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت، ويسامى بقوته مايعظم

أن يسامى من قوى الكون الأعظم، ثم يصغر ويتضاءل وينحط الى أدنى درك فى الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر مالم يعرف سببه ولم يدرك منشأ، لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين.

ومن ذلك الضعف قيد الى هداه، ومن تلك الضعة أخذ بيده الى مشرق سعادته. أكمل الواهب الجواد لجملته ماأقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده، وكما جاد على كل شخص العقل المصرف للحواس، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع.

من عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة، بل الراجع بها الى النفوس التى أقفرت منها، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه، وهى جهة الخضوع والاستكانة، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص من أنفسهم، لايشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك، زيادة فى الإقناع، بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطرق على سوابق العقول، فيستخذى الطامح، ويذل الجامح، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه.

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته، فيحيطون العقول بما لامندوحة عن الإذعان له، ويستوى فى

الركون لما يجيئون به المالك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري. يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته، وأولئك هم الأنبياء المرسلون.

فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان، ومن أهم حاجاته فى بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص، نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد.

امكان الوحى

الكلام فى امكان الوحى يأتى بعد تعريفه، لتصوير المعنى الذى يراد منه، ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر، فيفهم معنى المصدر نفسه، ولا تعنينا ماتثيره الألفاظ فى الأذهان، ولنذكر من اللغة مايناسبه:

يقال: وحيت إليه وأوحيت، اذا كلمته بماتخفيه عن غيره، والوحى مصدر من ذلك. والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه. ثم غلب فيما يلقى الى الأنبياء من قبل الله : وقيل الوحى إعلام فى خفاء، ويطلق ويراد به الوحى.

وقد عرفوه شرعاً : أنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه.

أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول[٥١] بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت.

ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى مايطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور[٥٢].

أما إمكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ماغاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك، وسهولة فهمه عند العقل، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لايريد أن يدرك، ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لاتفهم.

نعم . . يوجد فى كل أمة، وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم الى ماوراء سواحل اليقين، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس، بل قد يدركهم

---

(٥١) أي ما هو بواسطة .

(٥٢) أي أن الفرق بين الوحي والالهام ان متلقى الوحي يستيقن أنه من الله وليس ذلك شرطا في متلقي الالهام .

الريب فيما هو من متناولها، كما سبقت الاشارة، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ماهو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان، فينسون العقل وشئونه، وسره ومكنونه، ويجدون فى ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهى، بل عن مجالس الحشمة التى تضمهم الى الالتزام بما يليق، وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق، كما هو حال غير الانسان من الحيوان . فاذا عرض عليهم شيء من الكلام فى النبوات والأديان، وهم من أنفسهم هام بالإصغاء، دافعوا بما أوتوا من الإختيار فى النظر، وانصرفوا عنه، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة، وتتبعها الشريعة، فيحرموا لذة ماذاقوا، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم، ان شاء الله.

قلت: أى استحالة فى الوحى؟ وأن ينكشف لفلان مالاينكشف لغيره، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة.

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة، يعلو بعضها بعضاً، وأن الأدنى منها لايدرك ماعليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط، بل لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لامدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه، ولاشبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ماهو بديهى عند من هو أرقى منه، ولاتزال المراتب ترتقى في ذلك إلي ما لايحصره العدد، وأن من ارباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً

فيسعى إليه، ثم يدركه، والناس دونه ينكرون بدايته، ويعجبون لنهايته، ثم يألفون ماصار إليه كأنه من المعروف الذى لاينازع ، والظاهر اللى لايجاحد، فإذا أنكر منكر ثاروا عليه ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم إليه، ولايزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة الى اليوم.

فإذا سلم - ولا محيص عن التسليم - بما أسلفنا من المقدمات ، لمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها ، عند الوصول إليها، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية مايكون لها من نقاء الجوهر، بأصل الفطرة، ماتستعد به، من محض الفيض الإلهى، لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان مالم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم مايعلو وضوحاً على مايتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن كل ذلك العلم الى تعليم ماعلمت ودعوة الناس الى ماحملت على إبلاغه إليهم، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة..

يظهر برحمته من يختصه بعنايته، ليفى للإجتماع بما يضطر إليه من مصلحة، الى أن يبلغ النوع الانسانى أشده، وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته وسعادته كافية فى إرشاده، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة، كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا ﷺ.

أما وجود بعض الأرواح العالية، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا إستحالة فيه بعدما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم، قديمه وحديثه . اشتمال الوجود على ما هو الطف من المادة، وأن غيب عنا، فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقاً لشيء من العلم الإلهى وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته.

أما تمثل الصوت، وأشباح الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع، بل يجالد ويصارع، ولاشيء من ذلك فى الحقيقة بواقع، فإن جاز التمثل فى الصور المعقولة، ولا منشأ لها إلّا فى النفس، وإن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ، فلم لايجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنتزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس؟وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة، لاختصاص مزاجهم بما لايوجد فى مزاج غيرهم.

وغاية مايلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله، بل يتحتم، لأن

شأنهم فى الناس أيضاً غير الشئون المألوفة، وهذه المغايرة، من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم، والدليل على سلامة شهودهم، وصحة مايحدثون عنه.

إن أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وإن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل.

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الانس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال(٥٣) لاتنكر عليهم، لتحقق حقائقها في الواقع، فهم لذلك لايستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء، صلوات الله عليهم، ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف.

ودليل صحة مايتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق

---

(٥٣) اشتهر بتحديده والحديث عنه أفلاطون ،وهو عنده مبدأ الوجود والمعرفة كليهما .

فى سرائرهم المتلألىء فى بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى مافيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة، ولايخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرعماينكشف حالهم، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به ولايكون لهم إلاسوء الأثر فى تضليل العقول وفساد الأخلاق وإنحطاط شأن القوم الذين رزئوا به، إلا أن يتداركهم الله بلطفه، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بإمكان ماانبئوا به بل وبوقوعه إلا حجاب من العادة، وكثيراً ماحجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة.

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه، ظاهر للشاهد الذى يرىء حاله، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات، ويتحقق بالعيان مايغنيه عن البيان، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة.

أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر، وهو كما تبين فى علم آخر: رواية خبر عن شهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب (عادة)، وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه، كالاخبار بوجود (مكة) أو بأن للصين عاصمة تسمى (بكين). وسبب استحالة

التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة (٥٤)، وخلوه من عوارض تضعف الثقة به، ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر.

لانزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الأخبار يحصل اليقين بالمخبر به، وإنما النزاع فى اعتبارات تتعلق به، ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى، ومما جاء به الخبر، انهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا، ولا بالأكثر مالاً ، ولم يختصهم أحدبالعناية بهم لتعليمهم علم مادعوا اليه، وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس، وتنبو عنهم الأنظار، ومع ذلك، واستحكام السلطان لغيرهم، ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم، قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك وأجنادهم، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السماوات والأرض ماأراد شرعه للناس، وأقاموا من الدليل ماتصاغرت دونه قوة المعارضة، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطرة ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ماجاؤا به.

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ماكانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالهم الشقاء ماانحرفوا عنها ، وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه

---

(٥٤) مثل أن لا يكون الخبر ممتنعا عقلا ، وأن يكون المخبربه محسوسا

من الأدلة عند التحدى لايصح معه، فى العقل، أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى إليهم ماشرعوا للناس.

على أن من لايعتقد مايقول لايبقي لمقاله أثر فى العقول. والباطل لابقاء له إلّا فى الغفلة عنه، كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة ينبت بإهمالها وينمو بإغفالها، فإذا لامستها عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء.

ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الانسانى ماشاء الله مما قدر لها، مقام سائر قواه، مع كثرة المعارضين، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون اسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائماً فى خلال ماألحق بها المبتدعون، أما بقية الرسل ممن يجب علينا الإيمان بهم فيكفى فى إثبات نبوتهم اثبات رسالة نبينا ﷺ ، فقد أخبرنا برسالتهم، وهو الصادق فيما بلغ به. وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد ﷺ فى باب على حدته ان شاء الله.

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الانسانى الى الرسل، أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من نعم واهب

الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه، ولكنها حاجة روحية، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح؛ وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة، أو تقويم ملكتها، أو إيداعها مافيه سعادتها في الحياتين، أما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه، إلا من وجهة العظة العامة، والارشاد الى الاعتدال فيه، وتقرير ان شرط ذلك كله أن لايحدث ريبا في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيما، متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له، وصنع قدرته، وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال، وشرطه أن لاينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ماحدد في شريعتها.

يرشدون العقل الى معرفة الله، وما يعرف من صفاته، ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان، على وجه لايشق عليه الاطمئنان إليه، ولايرفع ثقته بما آتاه الله من القوة.

يجمعون كلمة الحق على إله واحد، لافرقة معه، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده ، وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الأعمال والمعاملات، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات، تذكرة لمن ينسى، وتزكية مستمرة لمن يخشى، تقوى ماضعف منهم، وتزيد المستيقن يقيناً.

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع، ويؤيدون بما يبلغون عنه ماتقوم به المصالح العامة، ولاتفوت به المنافع الخاصة، يعودون بالناس الى الألفة، ويكشفون لهم سر المحبة، ويستلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وان كان لايغفل حقه، وأن لايتجاوز فى الطلب حده، وأن يعين قويهم ضعيفهم، ويمد غنيهم فقيرهم، ويهدى راشدهم ضالهم، ويعلم عالمهم جاهلهم.

يضعون لهم، بأمر الله، حدوداً عامة، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم. كاحترام الدماء البشرية إلّا بحق، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله، واحترام الأعراض، مع بيان مايباح ومايحرم من الابضاع، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، والرحمة بالضعفاء ، والإقدام على نصيحة الأقوياء، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلااستثناء.

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية. آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب، والانذار والتبشير، حسبما أمرهم الله جل شأنه.

يفصلون في جميع ذلك للناس مايؤهلهم لرضا الله عنهم، ومايعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة، وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده، وأخذ بأوامره، وتجنب الوقوع في محاظيره. يعلمونهم من أنباء الغيب ماأذن الله لعباده في العلم به، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس، وتثلج الصدور، ويعتصم المرزوء بالصبر انتظاراً لجزيل الأجر، وإرضاءً لمن بيده الأمر، وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الانساني لايزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم .

ليس من وظائف الرسل ماهو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ، ولاتفصيل مايحويه عالم الكواكب، ولا بيان مااختلف من حركاتها، ولا ما استكن من طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا مائحتاج اليه النباتات في نموها، ولاماتفتقر اليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له العلوم، وتسابقت في الوصول الى دقائقه الفهوم، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الادراك، يزيد في سعادة المحصلين، ويقضي فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة

التدرج فى الكمال، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه، وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء.

أما ما ورد فى كلام الأنبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض، فإنما يقصد منه النظر الى مافيه من الدلالة على حكمة مبدعة، أو توجيه الفكر الى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه، ولغتهم، عليهم الصلاة والسلام ، فى مخاطبة أممهم لايجوز أن تكون فوق مايفهمون، وإلا ضاعت الحكمة فى إرسالهم، ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة، وكذلك ماوجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة، وهذا القسم أقل ماورد فى كلامهم.

على كل حال لايجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان، بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان، مطالباً لها باحترام البرهان، فارضاً عليها أن تبذل ماتستطيع من الجهد فى معرفة مابين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد. ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لايغفرها له رب الدين.

اعتراض مشهور

قال قائل: ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر، وكمالاً لنظام اجتماعهم، وطريقاً لسعادتهم الدنيوية والأخروية، فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون، كل يستعد للوثبة ولاينتظر إلا مجيء النوبة، حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع، عد أهل كل ذي دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ماكان من اختلاف المصالح والمنافع، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم، وتختلف مذاهبهم في فهمه، وتتفارق عقولهم في عقائدهم، ويثور بينهم غبار الشر، وتتشيث أهواؤهم بالفتن، فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم، الى أن يغلب قويهم ضعيفهم، فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين. . فها هو الدين الذي تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سبباً في الشقاق، ومضرما للضغينة، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر؟؟.

نقول في جوابه نعم . . كل ذلك قد كان، ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم، ووقوع الدين في أيدي من لايفهمه، أو يفهمه ويغلو فيه، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم، وإلا فقل لنا: أي نبي لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم؟ ولم يكن دينه وافياً بجميع ماكانت تمس إليه حاجتها في أفرادها وجملتها؟؟.

أظن أنك لاتخالفنا فى أن الأعظم من الناس، بل الكل - إلّا قليلا- لا يفهمون فلسفة (أفلاطون)، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق (أرسطو)، بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلّا خيالاً لا أثر له فى تقويم النفس ولا فى اصلاح العمل، فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لاتفارقها من تلاعب الشهوات بها، ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها، فأى الطرق أقرب إليك فى مهاجمة شهواتهم وردها الى الاعتدال فى رغائبها.

من البديهى أنك لاتجد الطريق الأقرب فى بيان مضارالإسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب، ومابنحو ذلك، مما لايصل إليه أرباب العقول السامية إلّا بطويل النظر، وانما تجد أقصر الطرق وأقومها أن تأتى إليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب، فتذكره بقدرة الله الذى وهب ماوهب، الغالب عليه فى أدنى شئونه إليه، المحيط بما فى نفسه، الآخذ بأزمة هممه، وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك مايقرب الى فهمه، ثم تروى له ماجاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر، ومن سير السلف فى ذلك الدين مافيه أسوة حسنة، وتنعش روحه بذكر رضا الله إذا استقام، وسخطه عليه إذا تقحم، عند ذلك يخشع منه القلب، وتدمع العين، ويستخذى الغضب، وتخمد الشهوة، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلّا أنه يرضى الله وأولياءه إذا أطاع، ويسخطهم إذا عصى، ذلك هو المشهود من حال البشر، غابرهم وحاضرهم، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم.

كم سمعنا أن عيوناً بكت، وزفرات صعدت، وقلوباً خشعت لواعظ الدين؟ لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة؟!.

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك؟ هذا أمر لم يعهد فى سير البشر، ولاينطبق على فطرهم، وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد، ولاقيام للأمرين إلا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة ، بل والخاصة ، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم.

سوء الاستعمال

قلنا: ان منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص، أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك، بل نصعد الى مافوق ذلك ونقول: منزلة السمع والبصر.

أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر؟ وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة؟ ومع ذلك فقد يسىء البصير استعمال بصره، فيتردى فى هاوية يهلك فيها، وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه، يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج . وقد

يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء، ويعلم ذلك الباغي في رأيه من أهل الشر، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة، ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها.

ولكن وقوع هذه الأمثال لاينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله، كذلك الرسل، عليهم السلام، أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة ، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء، فالدين هاد، والنقص يعرض لمن دعوا الى الاهتداء به، ولايطعن نقصهم في كماله، واشتداد حاجتهم إليه ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾(٥٥) .

ألا إن الدين مستقر السكينة، ولجأ (٥٦) الطمأنينة، به يرضى كل بما قسم له، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون، وبه ينظر الانسان الى من فوقه في العلم والفضيلة، والى من دونه في المال والجاه، اتباعاً لما وردت به الأوامر الإلهية.

---

(٥٥) البقرة:٢٦.

(٥٦) اللجأ مصدر معناه : الحصن والملاذ.

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعي الاختيارية.

الدين قوة من أعظم قوى البشر، وإنّما قد يعرض عليها من العلل مايعرض لغيرها من القوى، وكل ماوجه الى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه، وماعليهم في إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع، فترجع إليه قوته، وتظهر للأعمى حكمته.

ربما يقول قائل: إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأي القائلين بإهمال العقل بالمرة في قضايا الدين، وبأن أساسه هو التسليم المحض، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام.

فنقول: لو كان الأمر كما عساه أن يقال، لما كان الدين علماً يهتدى به، وإنما الذي سبق تقريره هو أن بالعقل وحده لايستقل الحيوان في درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لابد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف مايشتبه على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله، والإذعان لما تكشف من معتقدات وحدود أعمال. كيف ينكر على العقل حقه في ذلك، وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها الى معرفتها، وأنها آتية

من قبل الله، وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ماجاء به، وإن لم يستطع الوصول الي كنه بعضه، والنفوذ الى حقيقته، ولايقضى عليه ذلك بقبول ماهو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد، فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به، فإن جاء مايوهم ظاهره ذلك فى شيء من الوارد فيها، وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل، مسترشداً ببقية ماجاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه، وفى التفويض الى الله فى علمه، وفى سلفنا الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى.

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا، فى هذه الوريقات، أن نلم بتاريخ الأمم عامة، وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك، وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء، والى نار تنقض من سماء الحق على أدم[57] الأنفس البشرية، لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة

---

(٥٧) من معانيه السمرة والسواد .

للعقول، وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه المرؤسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة الضالين، والقادة الغارين، وبالجملة تؤب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التى سنها الله له: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾(٥٨). ليبلغ بسلوكها كماله، ويصل على نهجها الى ماأعد فى الدارين له .

ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف: كانت دولتا العالم، دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب فى تنازع وتجالد مستمر، دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة، وأموال هالكة، وظلم من الإحن حالكة، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد مالايوصف فى قصور السلاطين والأمراء، والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة، وكان شره هذه الطبقة من الأمم لايقف عند حد، فزادوا فى الضرائب، وبالغوا فى فرض الأتاوات، حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها، وانحصر سلطان القوى فى اختطاف مابيد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر، والذل والاستكانة ، والخوف والاضطراب، لفقد الأمن على الأرواح والأموال.

---

(٥٨) الإنسان:٣

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم، فعاد هؤلاء كأشباح، اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها.

ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها، ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهى، الذى يخالط الفطر الإنسانية، قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول، فتهتدى العامة الى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام، ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات، ليقذفوا بها فى عقول العامة، فيغلظ الحجاب، ويعظم الرين، ويختنق بذلك نور الفطرة، ويتم لهم مايريدون من المغلوبين لهم.

وصرح الدين، بلسان رؤسائه، إنه عدو العقل، وعدو كل مايثمره النظر، إلا ماكان تفسيراً لكتاب مقدس، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لاتنضب ومدد لاينفد.

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم، وذلك كان شأنهم فى معايشهم، عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء، اللهم إلا بعض شوارد

من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الأذهان، ومعها مقت الحاضر، ونقص العلم بالغابر، ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها، بما أنقلب من الوضع، وانعكس من الطبع، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة، والشره حيث تنتظر القناعة، والذعارة حيث ترجى السلامة، والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب، وانصرافه لأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين، فاستولى الاضطراب على المدارك، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين فى شعوب متعددة، وكان ذلك ويلاً عليها فوق مارزئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات، خاضعة للشهوات، فخر كل قبيلة فى قتال أختها، وسفك دماء أبطالها، وسبى نسائها، وسلب أموالها، تسوقها المطامع الى المعامع، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا أصنامهم من الحلوى، ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها!! وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن ، أو تنصلا من نفقات معيشتهن، وبلغ الفحش بهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة، وبالجملة: فكانت ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة، وانفصمت عراها عند كل طائفة.

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم، يوحى إليه رسالته، ويمنحه عنايته، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم، التى أظلت رءوس جميع الأمم؟!.

نعم. كان ذلك، ولله الأمر من قبل ومن بعد . فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول، عام الفيل (٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام). ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى، بمكة، ولد يتيماً، توفى والده قبل أن يولد، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج وجارية، ويروى أقل من ذلك. وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً. فاحتضنه جده عبد المطلب، وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبوطالب، وكان شهماً كريماً غير أنه من الفقر بحيث لايملك كفاف أهله، وكان ﷺ من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم، على مابه من يتم فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول، ولم يقم على تربيته مهذب، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية، وعشراء من حلفاء الوثنية، وأولياء من عبدة الأوهام، وأقرباء من حفدة الأصنام، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل، بدنا وعقلاً وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه، بالأمين.

أدب الهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء، خصوصاً مع فقر القوام، فاكتمل ﷺ كاملاً والقوم ناقصون، رفيعاً

والناس منحطون، موحداً وهم وثنيون، سلما وهم شاغبون، صحيح الاعتقاد وهم واهمون، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أميا مثله تنطبع نفسه بماتراه من أول نشأته الى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لاسيما إن كان من ذوى قرابته وأهل عصبته، ولاكتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولاعضدا ذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده، ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وماجاء في الكتاب من قوله: ﴿ووَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ (٥٩) لايفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم، حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل الى ماهدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه الى ماكانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

---

(٥٩) الضحى:٧.

ووجد شيئاً من المال يسد حاجته ـ (وقد كان له في الاستزاده منه مايرفه معيشته) بما عمل لخديجة ، رضى الله عنها ، في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ماكان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا ، ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ماكان يسلكه مثله في الوصول الى ماترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبه عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر ،والمراقبة والتحنث[٦٠] بمناجاة الله تعالى . والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه ، الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهى ، وتجلى عليه النور القدس ، وهبط عليه الوحى من المقام العلى ، فى تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بماسلب من ملكه ، وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجده من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما مافعل جده عبد المطلب عند زحف " أبرهة " الحبشى [٦١] على ديارهم ، جاء الحبشى لينتقم من

---

(٦٠) أي التعبد بمناجاة الله .

(٦١) الملقب بالاشرم ،حكم اليمن العربية لحساب ملك الحبشة ، وكان في الاصل عبدا لرجل روماني ،واستقل باليمن عن الحبشة فترة من الزمن ، وكان مسيحيا ،بدأ حكمه لهذه البلاد سنة ٥٣١م . أنظر دائرة المعارف الاسلامية .

العرب بهدم معبدهم العام، وبيتهم الحرام، ومنتجع حجيجهم، ومستوى العلية من آلهتهم، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك، فاستدناه وسأله حاجته فقال: هى أن ترد الى مائتى بعير أصبتها، فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطير، فأجابه: أنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ماينتهى إليه الاستسلام، وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش، فأين من تلك المكانة محمد ﷺفى حاله من الفقر، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطانا ؟؟ . . لامال ، لاجاه، لاجند ، لاأعوان ، لاسليقة فى الشعر ، لابراعة فى الكتاب، لاشهرة فى الخطاب ، لا شئ كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة، أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة.

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ماالذى أعلى رأسه على الرؤوس ؟ ما الذى سما بهمته على الهمم حتى إنتدب نفسه لإرشاد الأمم، وكفالته لهم كشف الغمم، بل وإحياء الرمم؟؟.

ماكان ذلك إلا ماألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عقائدهم،ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية ، ينصره في عمله ، ويعده فى الانتهاء الى أمله قبل بلوغ أجله. ماهو إلا الوحى الإلهى يسعى نوره بين يديه، يضىء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل. ماهو إلا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد والجندى.

أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة الى التوحيد والاعتقاد بالعلى المجيد، والكل مابين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة . . نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم، ونبذ معبوداتهم، وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم، وفى التنويه بإفراد اله واحد بالتصرف فى الأكوان ، ورد كل شيء فى الوجود إليه، أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ماوراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به. صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والأرض، والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم. تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، بين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم الى اللّه كنسبة أصغر المعتقدين به، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية الى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذى نفس إنسانية فى الاستعانة برب واحد، يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه، لايتفاوتون إلّا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة. وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم ممّا استعبدوا له، ويحلوا اغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل، وقطعتهم دون الأمل .مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ماأودعته من الشرائع الإلهية، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم، وشدد النكير على المحرفين لها، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها،

اتباعاً لشهواتهم، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم. وأستلفت كل انسان الى ماأودع فيه من المواهب الإلهية، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثا، عامة وسادات، الى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده إليه عقله وفكره، وأن الله عرض عليهم جميع مابين أيديهم من الأكوان، وسلطهم على فهمها، والانتفاع بها بدون شرط ولاقيد إلّا الاعتدال، والوقوف عند خدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة الى أولئك المصطفين إنما هى فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه، وليست فى الاعتقاد بوجوده، وقرر أن لاسلطان لأحد من البشر على آخر منه إلاّ ما رسمته الشريعة وفرضه العدل، ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ماسخرت له بمقتضى الفطرة.

دعا الإنسان الى معرفة أنه جسم وروح، وأنه بذلك من عالمين مختلفين، وإن كانا ممتزجين، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ماقررت له الحكمة الإلهية من الحق .دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله فى العبادة والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والإرشاد.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده، ولاحول له ولاقوة، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ماجهلوا، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم، وعبيد شهوتهم، لايفقهون دعوته ولايعقلون رسالته، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمى مثله، لايرون فيه مايرفعه الى نصيحتهم، والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل، ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، وينبههم للعبر، ويحوطهم مع ذلك، بالموعظة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه، عادل فى أمره ونهيه، أو أب حكيم فى تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رؤوف بهم فى شدته، رحيم فى سلطته.

ماهذه القوة فى ذلك الضعف؟؟ ماهذا السلطان فى مظنة العجز! ماهذا العلم فى تلك الأمية؟! ماهذا الرشاد فى غمرات الجاهلية؟!. ان هو إلا خطاب الجبروت الأعلى، قارعة القدرة العظمى، نداء العناية العليا،ذلك خطاب الله القادر على كل شىء، الذى وسع كل شيء رحمة وعلما، ذلك أمر الله الصادع، يقرع الآذان، ويشق الحجب، ويمزق الغلف [٦٢]، وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به، واختصه

---

(٦٢) مفردها غلاف .

بذلك، وهو أضعف قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه، بعيدا عن الظنة، بريئا من التهمة! لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أى برهان على النبوة أعظم من هذا ؟!!! . . أمى قام بدعوة الكاتبين الى فهم مايكتبون ومايقرؤون؟! بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء، ليمحصوا ماكانوا يعلمون ؟! فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء؟! ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء؟؟ غريب فى أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ؟!.

ماهذا الخطاب المفحم؟ ماذلك الدليل الملجم؟.. أأقول ماهذا بشرا، ان هذا إلاملك كريم ؟! لا ،لاأقول، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه إن هو إلابشر مثلكم يوحى إليه. نبى صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

القـــرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لاتتطرق إليه الريبة، أن النبى ﷺ كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه، وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف، المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم. كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية مافيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة، نقب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها، ونبه على وجوه العبرة فيها. حكى عن الأنبياء ماشاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وماكان بينهم وبين أممهم، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم، المعتقدون برسالتهم . آخذ العلماء من الملل المختلفة على ماأفسدوا من عقائدهم، وماخلطوا فى أحكامهم، وماحرفوا، بالتأويل، فى كتبهم. وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل، وانتظم بها شمل الجماعة ماكانت عند حد ماقرره، ثم عظمت المضرة فى اهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم، ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب، وتهش لاستقبالها العقول، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم.

نزل القرآنُ في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب، وأغرزها مادة في الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ماتقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب، وأنفس ماكانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل، ونتائج الفطنة والذكاء، هو الغلب في القول، والسبق الى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول، وتفانيهم في المفاخرة بذلك لايحتاج الى الإطالة في بيانه.

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ﷺ والتماسهم الوسائل، قريبها وبعيدها، لإبطال دعواه، وتكذيبه في الإخبار عن الله، واتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته: والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته، وانهالوا بقواهم عليه، استكباراً عن الخضوع له، وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم، وهو مع ذلك يخطىء آراءهم، ويسفه أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعوهم الى مالم تعهده أيامهم، ولم تخفق لمثله أعلامهم، ولاحجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب، أو بعشر سور من مثله. وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ماشاءوا، ليأتوا بشيء من مثل ماأتى به، ليبطلوا الحجة، ويفحموا صاحب الدعوة :

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى، ولجاج القوم فى التعدى أصيبوا بالعجز، ورجعوا للخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام، وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام. أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر؟ وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى، صلوات الله عليه .

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ماصدقته حوادث الكون، كالخبر فى قوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾(٦٣) ، وكالوعد الصريح فى قوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(٦٤) الآية، وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته.

ومن الكلام عن الغيب فيه ماجاء فى تحدى العرب به، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله، مع سعة البلاد العربية، ووفرة سكانها، وتباعد أطرافها، وانتشار دعوته على لسان

---

(٦٣) الروم:٢ـ٤ .

(٦٤) النور:٥٥ .

الوافدين الى مكة من جميع أرجائها، ومع أنه لم يسبق له ﷺ السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها، وقصور العلم البشرى، عادة، عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ماتحداهم به ليس قضاء بشريا، ومن الصعب، بل من المتعذر، أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه، وشرط كالذى شرطه على نفسه، لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الأرض لاتخلو من صاحب قوة مثل قوته، وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم والخبير هو الناطق على لسانه، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول مااستنهضهم له وبلوغ ماحثهم عليه.

يقول واهم: ان العجز حجة على من عجز، فإن العجز هى حجة الافحام وإلزام الخصم، وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره، فمن الممكن أن لايسلم غيره بما سلمه، فلايفحمه الدليل، بل يجد الى إبطاله أقرب سبيل.

وهو هم يضمحل بما قدمناه من البيان، اذ لايوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلّا أنه يوجد عن كل منهما عجز، وشتان بين العجزين، وبعد مابين وجهتى الاستدلال فيهما، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى، وهو تقاصر القوىٰ البشرية دون مكانته م البلاغة ، وقلنا القوى البشرية ، لأنه جاء بلسان عربى، وقد عرا الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة، وكان حال العصر من البلا؛

كما ذكرناه، وحال القوم في العناد كما بينا، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم. فلايعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانياً يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم، وتقاصر القوى عن ذلك، مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه.

ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم، والتعرض للاصطدام بجميع ماأوتوا من قوة، مما يدل على الثقة من أمره، مع ماسبق تعداده من الأمور التي لايمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة، لا رجل يعظ وينصح على العادة.

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لايعرض عليه التغيير ولايتناوله التبديل أن نبينا محمداً ﷺ رسول الله الى خلقه، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ماورد في الكتاب المنزل عليه، والأخذ بكل ماثبت عنه من هدى وسنة متبعة، وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء ، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك .

الدين الإسلامى أو الإسلام *

بقى علينا أن نشير الى وظيفة الدين الإسلامي، ومادعا إليه، على وجه الإجمال، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة، والسر فى كون النبى ﷺ خاتم المرسلين، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

هو الدين الذى جاء به محمد ﷺ وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلاخوف ولااعتساف فى التأويل، ولاميل مع الشيع، وأتى مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه. وماسندى فيما أقول إلا الكتاب، والسنة القويمة، وهدى الراشدين.

---

* من هنا حتي ماقبل موضوع (التصديق بما جاء به محمد ﷺ) من رسالة التوحيد هذه، نشر أيضا فى كتاب(الاسلام والرد على منتقديه)ص ٩١-١١٨ طبعة لقاهرة سنة ١٩٢٨م. ولقد راجعنا النسختين وقومنا منهما النص.

التوحيد

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحداً متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفاة العلية كالعلم، والقدرة، والارادة، وغيرها. وعلى أنه لايشبهه شىء من خلقه، وأن لانسبة بينه وبينهم إلّا أنه موجدهم، وأنهم له وإليه راجعون:

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد ﴾ (٦٥) .

وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها، له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب، ولم يشتبهوا فى شيء منها، وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على مايريد أن يسلطه عليه من الأعمال، على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى، الذى لايعتريه التبديل ولايدنو منه التغيير، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك إلّا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وماجاوره من البديهات التى لاتنقص عنه فى الوضوح،بل قد تعلوه،كاستحالة الجمع بين النقيضين

---

(٦٥) الإخلاص: ـ ١ – ٤.

أو ارتفاعهما معا، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلاً. وقضي على هؤلاء، كغيرهم، بأنهم لايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون، وأن مايجريه على أيديهم فانما هو بإذن خاص، وبتيسير خاص، فى موضع خاص، لحكمة خاصة، ولايعرف شأن الله فى شيء من هنا إلا ببرهان، كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب: ﴿ واللّهُ أخْرَجَكُم مّن بُطُونِ أمّهَاتِكُمْ لاتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الأبْصَارَ والأفئِدَةَ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُون ﴾ (٦٦) ، والشكر عند العرب معروف أنه: تصريف النعمة فيما كان الإنعام بها لأجله، دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس، وغرز فينا من القوى مانصرفه فى وجوهه، بمحض تلك الموهبة، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها. وأما ماتتحير فيه مداركنا، وتقصر دونه قوانا، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه، على أنه فوق ماتعرف من القوى المسخرة لها، وكان لابد من الخضوع له، والرجوع إليه، والاستعانة به، فذلك انما يرد الى الله وحده، فلايجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة لايسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات، ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات، فهو وحده مالك يوم الدين.

---

(٦٦) النحل: ٧٨.

اجتثت بذلك جذور الوثنية وماوليها مما لو اختلف عنها في الصورة والشكل أو العبارة واللفظ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة، تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لاتنفك عن تلك العقيدة الباطلة، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام، وتخلصت بتلك الطهارة من الإختلاف فى المعبودين وعليهم، وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لايخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين، وابيح لكل أحد، بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم:

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧) ، وكما أمر رسول الله ﷺ ، أن يقول **﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾**(٦٨)، تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تقعدها بارادة غيره، سواء كانت ارادة بشرية ظن أنها شعبة من الارادة الإلهية، أو أنها هى ، كإرادة الرؤساء المسيطرين أو إرادة موهومة اخترعها الخيال، كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت

---

(٦٨) الانعام : ٧٩ .

(٦٧) الانعام : ١٦٢

عزيمته من أسر الوسائط، والشفعاء والمتكهنة والعرفاء، وزعماء السيطرة على الأسرار، ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة، وبأيديهم الإشقاء والإسعاد. وبالجملة، فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين، وصار الانسان بالتوحيد، عبداً لله، حرا من العبودية لكل ماسواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا علىَّ فى الحق ولا وضيع، ولا سافل ولارفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولم ومعارفهم، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمخض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لابعمله وخدمته.

مكانة العمل

طالب الإسلام بالعمل لكل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾ (٦٩) ﴿وان لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى﴾(٧٠)، وأباح لكل أحد أن يتناول من

---

(٦٩)الزلزلة:٧، ٨.

(٧٠) النجم:٢٩.

الطيبات ماشاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة، ولم يحظر عليه إلّا ما كان ضاراً بنفسه، أو بمن يدخل في ولايته، أو ماتعدى ضرره الى غيره، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله، واتسع المجال لتسابق الهمم في السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها، إلا حقاً محترماً تصطدم به.

حرية الفكر . . والتجديد

انحى الاسلام على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ، و نسفت ماكان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم. صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة [٧١] من سدنة هياكل الوهم: « نم فإن الليل حالك، والطريق وعرة والغاية بعيدة، والراحة كليلة والأزواد قليلة » !!.

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث، وانما المعلمون منبهـون ومرشـدون، والى طـرق

---

(٧١) الهينمة :صوت خفى .

البحث هادون، صرح في وصف أهل الحق بأنهم : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (٧٢) ، فو صفهم بالتمييز بين مايقال، من غير فرق بين القائلين، ليأخذوا بما عرفوا حسنه، ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون. صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وماتوارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسميا لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان، وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(٧٣) وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق

(٧٢) الزمر ١٨ .

(٧٣)الأنعام :١١.

عن دائب، عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته سير أسلافهم، وقولهم: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (٧٤) ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٧٥).

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ماكان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده الى مملكته يقضى بحكمه وحكمته، مع الخضوع مع ذلك لله وحده، والوقوف عند شريعته، ولاحد للعمل فى منطقة حدودها ، ولانهاية للنظر يمتد تحت بنودها.

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما: استقلال الإرادة، واستقلال الرأى والفكر، وبهما كملت له انسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها، وقد قال بعض حكماء الغربيين، من متأخريهم: إن نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الأصلين، فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر إلا بعد إن عرف العدد الكثير أنفسهم، وأن لهم حقاً فى تصريف اختيارهم، وفى طلب الحقائق بعقولهم، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس

---

(٧٤) لقمان :٢١ .

(٧٥)الزخرف:٢٢.

عشر من ميلاد المسيح، وقرر ذلك الحكيم: انه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان(٧٦).

رفع الإسلام بكتابه المنزل ماكان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية، استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتبة المقدسة، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب، لكن على شريطة أن لايفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ماترمي إليه، ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضا مزية الفهم إلّا قليلاً، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ماجاء في الشرائع والنبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الإرسال، فجاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا، فقال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وإِنْ هُم إِلَّا يَظُنُّون ﴾(٧٧) ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً،بِئس مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّه، واللَّه لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِين ﴾(٧٨).أمّا الأماني فنسرت

(٧٦) الاشارة هنا إلى أثر التعاليم الاسلامية التي اقتبسها الغرب من الاندلس وبواسطة الاختلاط زمن الحروب الصليبية .. الخ في حركة الإصلاح الديني في أوربا . وسيأتي لنا تعليق خاص بهذا الامر في الفصل الخاص بانتشار الاسلام من رسالة التوحيد هذه .

(٧٧)البقرة : ٧٨.

(٧٨) الجمعة : ٥٠ .

بالقراءات والتلاوات، أي لايعلمون منهُ إلّا أن يتلوه، وإذا ظنوا أنهم على شيء مّا دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه، وبلا برهان على ماتخيلوه عقيدة وظنوه دينا، وإذا عن لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده، لشهوة دفعته الى ذلك، جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة، واعتسف في التأويل، وقال: هذا من عند الله ﴿ فويلٌ للذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بأيدِيهم ثم يقولون هذا من عند الله لِيشتَرُوا بِهِ ثَمَناً قليلا ﴾[79]، أمّا الذين قال: إنهم لم يحملوا التوراة، وهي بين أيديهم بعد ما حملوها، فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسم عقولهم إلى إدراك ما أودعته من الشرائع والأحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها، فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر من شأنهم فيما لايليق بنفس بشرية أن تظهر به، مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولايستفيد من حملها إلّا العناء والتعب وقصم الظهور وانبهار النفس، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال، فما كان سبباً في إسعادهم، وهو التنزيل والشريعة، أصبح سبباً في شقائهم بالجهل والغباوة. وبهذا التقريع ونحوه، وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الألباب للتفقه واليقين، ممّا هو منتشر في القرآن العزيز، فرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ماأودع الله فى كتبه، وماقرر

---

(79) البقرة:79.

من شرعه، وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لابد منه للفهم، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين، لاتختص به طبقة من الطبقات ولايحتكر مزيته وقت من الأوقات.

اتفاق الأديان على التوحيد

جاء الإسلام والناس شيع في الدين، وإن كانوا، إلَّا قليلاً، في جانب عن اليقين، يتنابذون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون، فرقة وتخالف وشغب يظنونها في سبيل الله أقوى سبب، أنكر الإسلام ذلك كله، وصرح تصريحاً لايحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان وعلى السن جميع الأنبياء واحد. قال الله:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ (٨٠)، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨١) ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا

---

(٨٠) آل عمران: ١٩.

(٨١) آل عمران : ٦٧ .

الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَاتَدْعُوهُمْ إِلَيهِ ﴾ (٨٢). ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٨٣). وكثير من ذلك يطول إيراده في هذه الوريقات.

والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين مانزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة، مع ظهور الحجج، واستقامة المحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته. نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو افرده بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به، ونهي عنه، مما هو مصلحة البشر، وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول الى فهمه منها، والعزائم الى العمل به، وان هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف، وان اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين، وبعد عن سنته، ومتى

---

(٨٢) الشوري : ١٣ .

(٨٣) آل عمران ٦٤ .

روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية فى الإنعام على البشرية، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها، وسار الكافة في مراشدهم إخواناً، بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين.

إختلاف الأديان فى العبادات

أما صور العبادات، وضروب الاحتفالات ، مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها، فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ماعلم فيه الخير للأمة والملائمة للزمان، وكما جرت سنته - وهو رب العالمين - بالتدريج فى تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لايعلم شيئاً، الى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته، يمزق الحجب بفكره، ويواصل أسرار الكون بنظره، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم، فلم يكن من شأن الإنسان، فى جملته ونوعه، أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ من الكمال منتهاه، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائما على ماقررته الفطرة الإلهية فى شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التى لايصح الاختلاف فيها، وان اختلف أهل النظر فى بيان ماتفرع فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة، فلا نطيل الكلام فيه هنا.

تطور الأديان

جاءت الأديان والناس من فهم مصالحهم العامة، بل والخاصة، فى طور أشبه بطور الطفولية للناشيء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلّا ماوقع تحت حسه، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه، وأن يتأول بذهنه من المعانى مالا يقرب من لمسه، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن مايعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه، فهو من الحرص على مايقيم بناء شخصه فى هم شاغل عمّا يلقى إليه فيما يصله بغيره، اللهم إلا يدا تصل الى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام.

فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان، أو يرقى اليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام – وهم عيال الله – سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لا يأتيه إلا من قِبَل ما يحسه بسمعه أو ببصره ،فأخذتهم بالأوامر الصادعة . والزواجر الرادعة، وطالبتهم بالطاعة، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة (٨٤). كلفته بمعقول المعنى ، جلى الغاية، وان لم يفهموا معناه، ولم تصل مداركهم الى مرماه، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم، وتنفعل به مشاعرهم، وفرضت عليهم من العبادات مايليق بحالهم هذه.

---

(٨٤) الاشارة هنا إلى الديانة الموسويه .

ثم مضت على ذلك أزمان، علت فيها الأقوام وسقطت، وارتفعت وانحطت، وجربت وكسبت، وتحالفت واتفقت، وذاقت من الأيام آلاماً، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الأنفس بنفث [٨٥] الحوادث ولقن[٨٦] الكوارث شعورا أدق من الحس، وأدخل فى الوجدان، لايرتفع فى الجملة عمّا تشعر به قلوب النساء، أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم، ويستعطف الأهواء، ويحادث خطرات القلوب، فشرع للناس من شرائع الزهادة مايصرفهم عن الدنيا بجملتها، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق ألّا يطالب به ولو بحق، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء، وما ينحو نحو ذلك ممّا هو معروف [٨٧] ، وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ماكانوا عليه، ومادعاهم اليه، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها وداوى من أمراضها، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله، ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال، فهب القائمون عليه

---

(٨٥) القاء الحوادث والهامها .

(٨٦) لقن الكوارث : كلامها المباشر ودلالاتها .

(٨٧) الاشارة هنا إلى المسيحية .

أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا عليه ماشاء الهوى من الأباطيل.

هذا كان شأنهم في السجايا والأعمال، نسوا طهارته، وباعوا نزاهته. أما فى العقائد فتفرقوا شيعاً، وأحدثوا بدعاً، ولم يستمسكوا من أصوله إلّا بما ظنوه من أشد أركانها، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه، بل وفى غيره من دقائق الأكوان، والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شىء من سرائر الخلقة، فصرحوا أن لا وفاق بين الدين والعقل، وأن الدين من أشد أعداء العلم، ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه، بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل مايملك من حول وقوة، وأفضى الغلو فى ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشد النزعات على العالم الإنسانى، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين، فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل، وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام، وكان الناس على ذلك الى أن جاء الإسلام.

الإسلام

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالإنسان أشده وأعدته الحوادث الماضية الى رشده، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب،

ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والأخروية، وبين للناس مااختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه مااختصموا عليه، وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد، ومشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن رسم العبادة على الأشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح، وأن الله لاينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا الأمرين طهراً مطلوبا، وجعل روح العبادة الاخلاص ، وأن مافرض من الأعمال انما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٨٨) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٨٩) ورفع غنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر، بل ربما فضله عليه، وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة، وصرح بما لايقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الاخرة، ولا وصول الى خير العقبى إلا بالسعى فى صلاح الدنيا.

---

(٨٨) العنكبوت :٤٥ .

(٨٩) المعارج ١٩، ٢٢ .

التفت الى أهل العناد فقال لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٩٠) . وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على مازَعزعُوا من أصول اليقين، ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين، ولم يقف فى ذلك، عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان، بل شرع شريعة الوفاق، وقررها فى العمل، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب، وسوغ مؤاكلتهم، وأوصي أن تكون مجادلتهمْ بالتى هى أحسن، ومن المعلوم أن المحاسنة هى رسول المحبة، وعقد الالفة، والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف.

ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدفعون عن أنفسهم، ونص على أن لهم مالنا وعليهم ما، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدمونه من مالهم، ونهى بعد ذلك عن كل إكراه فى الدين، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله ﴿ ياأيها الذينَ آمَنُوا عَلَيْكُم أنفُسكُم لايَضُرُكُم من ضل إذا اهتدَيْتُمْ ﴾ (٩١) ، فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن،

---

(٩٠) البقرة : ١١١ .

(٩١) المائدة ١٠٥ .

وليس لهم ولاعليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الإسلام، فإن نوره جدير أن يخترق القلوب، وليست الآيات فى الأمر بالمعروف بين المسلمين، فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به، ولو أريد ذللك لكان التعبير: (على كل واحد منكم بنفسه) لا (عليكم أنفسكم)، كما هو ظاهر لكل عربى ، كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه، ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه.

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية، وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة، وشرف اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس (٩٢) والفصل (٩٣) والخاصة (٩٤)، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف مازعمه

---

(٩٢) الجنس ،في المنطق ، هو كل مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ما هو . أنظر (المعجم الفلسفى).

(٩٣) الفصل في المنطق ،هو جملة الموضوعات التي تربط بينها صفات مشتركة ، ويطلق على جزء من الماهية يميز النوع ، كالناطق بالنسبة للانسان ،وإذا ميز النوع عن مشاركيه في الجنس القريب ، سمى «بالفصل القريب» وإذا ميزه عن مشاركيه في الجنس البعيد سمى «بالفصل البعيد» . أنظر المرجع السابق .

(٩٤) هي الكلي الدال علي نوع واحد في جواب أي شئ هو ، لا بالذات ، بل بالعرض .. وتطلق علي ما ليس داخلا في الماهية ولكنه يميز الشئ ، كما تطلق علي ما هو ملازم للشئ علي الدوام ، الخ ، أنظرالمرجع السابق .

المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم، فأماتوا الأرواح في معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً.

هذه عبادات الإسلام، على مافى الكتاب وصحيح السنة، تتفق على مايليق بجلال الله، وسمو وجوده عن الأشياء،وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة . .

فالصلاة: ركوع وسجود، وحركة وسكون، ودعاء و تضرع، وتسبيح وتعظيم، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهى الذي يغمر القوة البشرية، ويستغرق الحول، فتخشع له القلوب، وتستخذى له النفوس، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات [٩٥]، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير، وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى مايخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير.

أما الصوم: فحرمان يعظم به الله فى النفس، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الإحسان الإلهى فى التفضل بها ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٩٦].

---

(٩٥) في مناسك الحج

(٩٦) البقرة ١٨٣ .

اما أعمال الحج فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده، ولو فى العمر مرة، يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير، والصعلوك والأمير، ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الأبدان، متجردين عن آثار الصنعة، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام، وهو أبو الدين، هو الذى سماهم المسلمين، واستقرار يقينهم على أن لاشىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع، وشعار هذا الإذعان الكريم فى كل عمل: (الله أكبر).

أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين؟ يضل فيها العقل، ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد؟!.

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير: (العالم) والكون الصغير (الإنسان) فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى ، لايغيرها شىء من الطوارىء الجزئية، غير أنه لايجوز أن يغفل شأن الله فيها، بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها ،فقد جاء على لسان النبى ﷺ (الشمس والقمر آيتان من آيات الله لايخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله) . وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد، لايقضى فيه الا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها.

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم، والمصائب التى يُرزؤن بها، ففصل بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما، فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة، والرزايا التى يرزا بها فى نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد ـ قد لايكون كاسبها أوجالبها ماعليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج، أو طاعة وعصيان، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة، أو الفجرة الفسقة، وترك لهم متاع الحياة الدنيا، وكثيرا مالمتحن الله الصالحين من عباده، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم :﴿إنَّا للّه وإنّا إليه راجِعُون؟ ﴾(٩٧)، فلاغضب زيد ولارضاعمرو، ولا اخلاص سريرة ولافساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة، اللّهم إلّا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب على جارى العادة، كارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجُبن، وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم علي الأكثر، ومايشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر.

---

(٩٧)البقرة :١٥٦ .

أما شأن الأمم فليس على ذلك، فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية، من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامع الشهوات، والدخول الى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح فى الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة: ﴿من يُرِد ثَوَابَ الدُّنيا نُؤتِهِ مِنها﴾ (٩٨) ، ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها، يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره، وتبعته الراحة إلى مقره، واستبدل الله عزة القوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون: ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ (٩٩) .أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل، لاينفعهم الأنين ولايجديهم البكاء ، ولايفيدهم مابقى من صور الأعمال، ولا يستجاب منهم الدعاء، ولاكاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا الى ذلك الروح

---

(٩٨) آل عمران :١٦ .

(٩٩) الإسراء ١٦ .

الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر ﴿إِنَّ اللَّهَ لايُغَيِر مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِرُوا ما بأنفسهُم﴾ [(١٠٠)] . ﴿سُنَّةَ اللَّه في الذين خَلوا مِنْ قَبل ولن تَجِد لسنَّة اللَّه تَبْديلا﴾ [(١٠١)] وما أجل ماقاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه : (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلّا بذنب، ولم يرفع إلّا بتوبة) .

على هذه السنن جرى سلف الأمة، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه . ويشق الفللك ببكائه، وهو ولع بأهوائه، ماض في غلوائه، وماكان يغني عنه ظنه من الحق شيئا.

التعليم

حث القرآن على التعليم ، وارشاد العامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال﴿ فلولَا نَفَرَ مِنْ كُل فِرقَة مِنْهُم طَائفة ليتفَقَّهُوا فِي الدين وليُنذِروا قومَهُم إذا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهُم يَحْذَرُون ﴾[(١٠٢)] ، ثم فرض ذلك في قوله

---

(١٠٠) ـ الرعد :١١ .

(١٠١)الأحزاب :٦٢.

(١٠٢) التوبة: ١٢٢ ـ

﴿ وَلتَكُن منكُم أمةٌ يَدْعُونَ إلى الخَير وَيأمُرُونَ بالمعرُوف وَيَنهَون عَن المنكَر وأولئكَ هُمُ المُفلحُون، ولا تَكُونُو كَالَّذينَ تَفرّقُوا واختَلَفُوا من بَعد ماجاءَهُم البَينَات وألئك لَهُم عَذَابٌ عَظيم، يَومَ تَبيضُ وجوه وَتسودُ وجوه فأمَّا الَّذين اسودت وجُوهُهم أكَفَرتُم بَعْدَ إيمَانكُم فذُوقوا العَذاب بما كُنتم تَكفُرون وأمَّا الَّذينَ ابيضت وجوهُهم ففي رحمةِ اللهِ هُم فيهَا خالدون، تلكَ آيات الله نتلوها عليكَ بالحقِ وَمَا الله يريد ظلماً للعالمين، ولله مافى السموات ومافى الأرض والى الله تُرجَعُ الأمور ﴾(١٠٣). ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، أبرز حال الأمارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة، فقال: ﴿ كُنتُم خَيرَ أمَّةٍ أخرِجَتْ للنَّاس تأمُرُون بالمعرُوف وَتنهَون عن المُنكرِ وتؤمنُون بالله ﴾(١٠٤) ، فقدم ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر علي الإيمان ، فى هذه الآية، مع أن الإيمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر، والدوحة التى

---

(١٠٣) آل عمران: ١٠٤-١٠٩.

(١٠٤) آل عمران : ١١٠ .

تتفرع عنها أفنان الخير، تشريفا لتلك الفريضة، وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض، بل تنبيها على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره ، ثم شد بالإنكار علي قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها، فقال ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسرائيل عَلَى لِسان داود وعِيسى بن مَريم، ذلكَ بِمَا عَصوا وكَانوا يَعْتَدُون،كَانُوا لايَتَنَاهونَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوه لَبِئس مَاكَانُوا يفعَلُون ﴾ (١٠٥)، فقذفَ عَليْهِمُ اللعنة، وَهِيَ أشدُ ماعَنونَ الله به على مقته وغضبه.

الزكاة

فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الأولين، سداً لحاجة المعدم، وتفريجاً لكربه الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين، وتيسيراً لأبناء السَّبِيل، ولَم يَحث على شيء حثه علي الانفاق من الأموال فى سبيل الخير، وكثيراً ماجعله عنوان الإيمان ودليل الإهتداء الى الصراط المستقيم، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة، ومحص (١٠٦) ، صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس

---

(١٠٥) المائدة: ٧٨ .

(١٠٦) أى خلصها .

الناس أجمَعين، وأى دواء لامراض الاجتماع أنجع من هذا؟ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(١٠٧) أغلق الإسلام بابى الشر، وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتا لاهوادة فيه.

لم يدع الإسلام، بعد ماقررنا، أصلاً من أصول الفضائل إلّا أتى عليه، ولا أمّا من أمهات الصالحات إلّا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام إلّا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده ـ كما ذكرنا ـ، حرية الفكر، واستقلال العقل فى النظر، ومابه صلاح السجايا ومافيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبيل السعى. ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لاينفد وذخيرة لاتفنى.

هل بعد الرشد وصاية؟؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟؟ .. كلا .. قد تبين الرشد من الغى،ولم يبق إلا إتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين. لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد ﷺ وانتهت الرسالات برسالته، كما صرح بذلك الكتاب، وأيدته السنة الصحيحة،وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده (١٠٨)، واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لاسبيل بعدُ لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن اللّه بشرع، أو يصدع عن وحيه بأمر. هكذا يصدق نبأ الغيب: ﴿ مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُم، وَلَٰكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١٠٩)

---

(١٠٧) الحديد : ٢١ .

(١٠٨) الاشارة إلى المتنبئين بعد الرسول ص ,وأشهرهم مسيلمة الكذاب .

(١٠٩) الأحزاب: ٤٠ .

انتشار الإسلام
بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الأمم الى الإصلاح عامة، فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك، لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ،ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط ألغربى وجدار الصين في أقل من قرن واحد . وهو أمر لم يعهد في تاريخ الأديان ، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب ، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة ، كغيره من الأديان ، ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل،أوذى لداعى، ﷺ بضروب الإيذاء ، وأقيم فى وجهه ماكان يصعب تذليله من العقاب، لولا عناية الله، وعذب المستجيبون له، وحرموا الرزق، وطردوا من الدار، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ويثبت الله بشهدها المستيقنين، ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ماقسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من الفصود على أيدى الإطباء الحاذقين﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا

فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾(١١٠)

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام، ليحصدوا نبتته، ويخنقوا دعوته، فمازال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقويا،، والفقير للأغنياء، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل والرشد في ظلمات الأضاليل، حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمنعة. وقد وطيء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر، كانت تدعو إليها، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحاً.

ضم الإسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم، ولم يعهد لها نظير في ماضيهم، وكان النبي ﷺ، قد أبلغ رسالته بأمر ربه، الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان، فهزءوا وامتنعوا، وناصبوه وقومه الشر، وأخافوا السابلة، وضيقوا على المتاجر فبعث إليهم البعوث في حياته، وجرى على سنته الأئمة من صحابته، طلبا للأمن وإبلاغاً للدعوة، فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم، وانهالوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها، وكثرة عددها، واستكمال أهبها وعددها، فظفروا منها بما هو معلوم.

وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين، وأباحوا لهم البقاء على

---

(١١٠) الأنفال: ٣٧.

أديانهم، وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين، ونشروا حمايتهم عليهم، يمنعونهم مايمنعون منه أهلهم وأموالهم، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة.

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر، وبرهانهم الغفلية، وحجتهم القوة، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة، يأخذون على عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون على بث أنفسهم أنفسهم العمل في نشره ،ويقفون مسعاهم على بث بمخالطة من عداهم، ومحاسنتهم المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفاً.

رفع الإسلام ماثقل من الإتاوات[111]، ورد الأموال المسلوبة الى أربابها، وانتزع الحقوق من مغتصبيها، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم. بلغ أمر المسلمين فيما بعد أ لايقبل الاسلام من داخل فيه إلا بين يدى قاض شرعى بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا، وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص

---

١١١) عند فتح العرب لمصر كان الفلاح المصري يدفع للدولة البيزنطية أكثر من ثلاث عشرة ضريبة ،اختصرها العرب إلى ضريبتين اثنتين ، معلومتي المقدار وميعاد السداد ، متناسبتين مع الوضع الاقتصادي الذي يعيش فيه . أنظر دراستنا عن (أرض مصر وفلاحها من الفتح العربي إلى الاقطاع الحربي) بكتابنا (نظرة جديدة إلى التراث طبعة بيروت سنة ١٩٧٤.

من مبالغ الجزية، وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لامحالة (١١٢) . عرف خلفاء المسلمين وملوكهم، فى كل زمن، ما لبعض أهل الكتاب، بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال، فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى أسبانيا. اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوروبا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها.

هذا ماكان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته، وألقوا بذلك بين أيديهم، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئا من القوة، وماكان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه، فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام، وأقنعهم أنه الحق، دون ماكان لديهم، حتى دخلوا فيه أفواجاً، وبذلوا فى خدمته مالم يبذل له العرب أنفسهم؟؟.

ظهور الإسلام، على ماكان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية، وتغلبه على ماكان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال، وسيره بسكانها على الجادة القويمة، حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل.

---

(١١٢) أنظر : فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بنى أمية) ص٥٢ وما بعدها . ترجمة د. حسن ابراهيم حسن ، محمد زكي ابراهيم . الطبعة الثانية .

وأن هذا الدين هو ماكانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدهما، فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلاً الى البقاء على العناد فى مجاحدته، فتلقوه شاكرين، وتركوا ماكان لهم بين قومهم صابرين.

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ماحركهم الى النظر فيه.فوجدوا لطفا ورحمة. وخيرا ونعمة، لاعقيدة ينفر منها العقل، وهو رائد الإيمان الصادق، ولاعمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية، وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق. رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى، ويلحقها بالملكوت الأعلى، ويدعوها الى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم، وهو مع ذلك لايمنع من التمتع بالطيبات، ولايفرض من الرياضات وضروب الزهادة مايشق على الفطرة البشرية تجشمه، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه، متى حسنت النية وخلصت السريرة فإذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة. تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرأوا القرآن، ونظروا فى سيرة الظاهرين من حامليه إليهم، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه، وماتكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه، فتراموا اليه خفافا من ثقل ماكانوا عليه. كانت الأمم تطلب عقلا فى دين، فوافاها، وتتطلع الى عدل فى إيمان، فأتاها، فما الذى يحجم بها عن المسارعة فى طلبتها والمبادرة الى رغبتها؟!.كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق، وكان من حكمها أن لايقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين، فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم

مطلق السلطان فى قطر كبير، وماكان يريده لنفسه، ولكن ليوسع به مسجداً، فلما عقد العزيمة على دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الأمير على ماكان منه (١١٣) اا عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بى أبى طالب أمام القاضى، وهو من نعلم من هو، ويستوقفه للتقاضى، الى أن قضى الحق بينهما. هذا وماسبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه، ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه.

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفه إلا بعد أن يحرجهم الجار، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم، ثم لايكون الاطائفا يحل ثم يرتحل، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة.

ومع ذلك - بل وغفلة المسلمين عن الاسلام، وخذلانهم له، وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم - ثم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد، خصوصا فى الصين وفى أفريقيا، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الأخذ بعقائده، على بصيرة فيما تنزع إليه، لاسيف وراءها، ولاداعى أمامها، وانما هو مجرد الاطلاع على ماأودعه، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه .

---

(١١٣) الامير هوعمرو بن العاص ، والى مصر ، والمرأة قبطية مسيحية

ومن هذا تعلم أن سرعة الدين الاسلامى، واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة، انما كان لسهولة تعقله، ويسر أحكامه، وعدالة شريعته، وبالجملة، لأن فطر البشر تطلب دينا، وترتاد منه ماهو أمس بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها، وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة، ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً، والى العقول مخلصاً، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه. هذا كان حال الإسلام فى سذاجته الأولى وطهارته التى أنشأه الله عليها، ولايزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض الى اليوم

قال من لم يفهم ماقدمناه، ولم يرد أن يفهمه: إن الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلّا بالسيف، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى، يعرضون القرآن على المغلوب، فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته. سبحانك هذا بهتان عظيم!!. ماقدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً، لايقبل الريبة فى جملته، وإن وقع اختلاف فى تفصيله، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلّا أنهم جاوروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه.

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل فى الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به، مهددا كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة، ومع كثرة الجيوش، ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة

كانت تمكن لها، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة، واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن، هذا ولم يكن السيف وحده، بل كان الحسام لايتقدم خطوة إلّا والدعاة من خلفه يقولون مايشاءون تحت حمايته، مع غيرة تفيض من الأفئدة، وفصاحة تتدفق من الألسنة، وأموال تخلب ألباب المستضعفين. إن في ذلك لآيات للمستيقنين.

جلت حكمة الله في أمر هذا الدين. سلسبيل حياة نبع في القفار العربية، أبعد بلاد الله عن المدنية، فاض حتى شملها، فأحياها حياة شعبية ملية، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها، زلزل هديره - على لينه - ماكان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها.

قالوا: كان لايخلو من غلب (بالتحريك) .قلنا : تلك سنة الله في الخلق، لاتزال المصارعة بين الحق والباطل، والرشد والغي قائمة في هذا العالم الى أن يقضى الله قضاءه فيه. اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة، ليحيي ميتها وينقع غلتها وينمي الخصب فيها، أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فعلاها، أو بيت رفيع العماد فهوى به؟؟.

سطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه، اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً، وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً فوقف وقفة القائد خذله الأنصار، وكاد يتزحزح الى ماوراءه، لكن

الله بالغ أمره، فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها "جنكيز خان" ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل(١١٤) ، وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينا وحملوه الى أقوامهم، فعمهم منه ماعم غيرهم، جاءوا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم.

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة، لم يبق ملك من ملوكه ولاشعب من شعوبه الا اشترك فيها، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة (١١٥)، جمع فيها للغربيين من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة مابلغته طاقتهم، وزحفوا على ديار المسلمين، وكانت فيهم بقية من روح الدين، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية، وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها، لم جاءوا ؟ وبماذا رجعوا ؟؟.

ظفر رؤساء الدين فى الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا مايشاءون من سكان الشرق، أو يستولى سلطان تلك الشعوب على مايعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية. جاد من الملوك والأمراء وذوى الثروة والأعلياء جم غفير، وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدروه بالملايين، استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين، وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها، تنظر فى أحوال المجاورين، وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بماترى وماتسمع، فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة، ثم وجدت حرية فى دين ، وعلما وشرعا وصنعة

---

(١١٤) كان ذلك منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

(١١٥) في الحروب الشهيرة بالحروب الصليبية (١٠٩٦-١١٩٢م) .

مع كمال فى يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لامن العوادى عليه، ثم جمعت من الأدب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بماغنمته من جلادها.

هذا ماكسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ماكسبوا، وأخذت الأفكار فى ذلك العهد تتراسل، والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ علي أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه، وحرفوا في معناه، ولم يكن بعد ذلك إلّا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الإصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته، جاءت فى اصلاحها بما لايبعد عن الاسلام إلّا قليلا، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى مايتفق مع عقيدة الإسلام إلّا فى التصديق برسالة محمد ﷺ، وأن ماهم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى، إلّا فى صورة العبادة لاغير.

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها، وتصلح من شئونها، حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا اليه الإسلام، غافلة عن قائدها، لاهية عن مرشدها، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة من سبقها من أهل الأزمان الغابرة. هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج

جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا، وعادوا ليفيدوا. ظن الرؤساء أن في أهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم، فباءوا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم ومابيناه في شأن الاسلام، ويعرفه كل من تفقه فيه، قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم. والى الله عاقبة الأمور(١١٦).

---

(١١٦) في الفصل الخاص بالقرآن أشرنا الى تبني الامام لرأي الحكيم الغربي الذي أرجع الاصلاح لديني في أوربا المسيحية الى تعاليم الاسلام المقتبسة من أهله.. وهنا يعود الاستاذ الامام للحديث عن هذا الأمر مشيرا الى (الاداب التي جمعها الصليبيون المحاربون في المشرق، والمكاسب العملية التي اكتسبها (سفراء) أوربا من الأندلس، وثمرة كل ذلك التي تجسدت في حركة الاصلاح الديني المسيحية، وكيف جاء المذهب الجديد البروتستانتية قاب قوسين أو أدنى من الإسلام . . وللمرحوم الاستاذ أمين الخولي بحث نفيس في هذا المقام عنوانه (صلة الاسلام باصلاح المسيحية) (سنة ١٩٣٥م) قدم فيه دراسة علمية تثبت بالأدلة والبراهين ماأشار اليه في إجمال هنا الاستاذ الإمام.

ومما تجدر الاشارة اليه أن الاستاذ الخولي قد عاب في نهاية بحثه على الشيخ رشيد رضا وضعه في الطبعة السابعة من رسالة التوحيد سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤م وضعه لهذه الفقرة عنوانا فرعيا هو " اقتباس الاصلاح الديني في أوربا من الإسلام" بحجة أن كلام الاستاذ الامام لايشير الى الاقتباس ولكننا نرى أن نص الاستاذ الإمام يشهد بسبقه (بالإشارة) الى ماأبدع في دراسته بعد ذلك الاستاذ الخولي عليهم جميعاً رحمة الله.

إيراد سهل الإيراد

يقول قائلون : اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق، وقال كتابه:﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾(١١٧) فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب، وفرقت بين طوائفها المذاهب؟؟.

اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا؟ اذا كان موليا وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لايملك لنفسه نفعاً ولاضراً ولايستطيع من دون الله خيرا ولاشراً؟، وكادوا يعدون ذلك فصلاً من فصول التوحيد؟!. اذ كان أول دين خاطب العقل، ودعاه الى النظر فى الاكوان ، وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الإمكان، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان، فما بالهم قنعوا باليسير، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع؟! . مابالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولايجدونها؟. ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل، أصبحوا مثلاً فى القعود والكسل؟. ماهذا الذى ألحق المسلمون بدينهم، وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين مابتدعوا وبين مادعاهم إليه فتركوه؟!.

إذا كان الإسلام فى قربة من العقول والقلوب، على مابينت فما باله اليوم ـ على رأى القوم ـ تقصر دون الوصول اليه يد

---

(١١٧)الأنعام ١٥٩ .

، اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه، فمال بال قراء القرآن لايقرءونه إلّا تغنياً، ورجال العلم بالدين لايعرفه أغلبهم إلّا تظنيا.

اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال، فما بالهم شدوهما الى أغلال ، أى أغلال؟!، اذا كان قد أقام قواعد العدل، فما بال أغلب حكامهم يضرب به المثل فى الظلم؟ ، إذا كان الدين فى تشوف الى حرية الأرقاء، فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار؟، اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء؟!، اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟، إذا كان قد حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن، فما هذا الذي نراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن؟، اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، خاصتهم وعامتهم،﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (١١٨)، وأنهم أن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلّط عليهم شرارهم، فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم، وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره، فما بالهم لايتناصحون ولايتواصون بحق، ولايعتصمون بصبر، ولايتناصحون فى خير ولاشر، بل ترك كل صاحبه وألقى بحبله على غاربه فعاشوا أفذاذا (١١٩) ،

---

(١١٨)العصر: ٢ . ٣.

(١١٩) أفرادا مغرقين في بالفردية ، ضد التضامن والجماعية .

وصاروا فى أعمالهم أفرادا ، لايحس أحدهم بما كان من عمل أخيه كأن ليس منه وكأن لم تجمعه معه صلة، ولم تضمه اليه وشيجة؟! مابال الأبناء يقتلون الآباء ؟، ومابال البنات يعققن الأمهات؟ أين وشائج الرحمة؟، أين عاطفة الرحم على القريب؟؟، أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء وقد أصبح الأغنياء يسلبون مابقى فى إيدى أهل البأساء؟!.

قبس من الإسلام أضاء الغرب، كما تقول، وضوءه الأعظم وشمسه الكبرى فى الشرق، وأهله فى ظلمات لايبصرون .. أصح هذا فى عقل، أو عهد فى نقل؟! ألم نر الى الذين تذوقوا من العلم شيئاً ، وهم من أهل هذا الدين، أول مايعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات، ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممّن سموا أنفسهم أحرار الأفكار وبعداء الأنظار؟ والى الذين قصروا همهم علي تصفح أوراق من كتبه، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها ، ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا، ويفتخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه في ذلك قد هجر منكراً، أو ترفع عن دنيئة؟!

فمن وقف على باب العلم من المسلمين تجد دينه كالثوب الخلق، يستحى أن يظهر به بين الناس، ومن غرته نفسه بأنه على شىء من الدين، وأنه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة (١٢٠) والعلم ظنة !! أليس فى هذا مايشهد الله وملائكته والناس على أن لاوفاق بين العلم والعقل وهذا الدين؟؟!!.

---

(١٢٠) الجنة بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة : من معانيها: الجنون وهو المراد هنا.

الجواب

وربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم، بل من عدة أجيال، وربما كان ماجاء في الإيراد قليلاً من كثير، وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله ، وابن الحاج، وغيرهما من أهل البصر فى الدين ماكان عليه مسلموا زمانهم، عامتهم وخاصتهم، بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق فى فهم معانيه، وحملها على مافهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم، ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ علي ماكتبه محققوا ومصنفوا سائر الأمم، فذلك هو الإسلام.

وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل، من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ماوعد الله أتباعه. وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء، فظهر نجاحه ظهورا لايستطيع معه الأعمى إنكاراً، والأصم إعراضاً. وغاية ماقيل فى الإيراد : أن أعطى الطبيب الى المريض دواء، فصح المريض، وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لايتناوله، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه، وهو فى يأس من حياته، ينتظر الموت، أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله .

كلامنا اليوم فى الدين الإسلامى وحاله على مابينا، أما المسلمون، وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلاكلام لنا فيهم الآن، وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر (١٢١) ان شاء الله.

---

(١٢١) تعد كتابات الاستاذ الإمام التى تتناول علاقة الاسلام بالحضارة ووضع المسلمين ازاءها وفاء بوعده هذا، وهى مقالات وأبحاث جمعناها في "أعماله الكاملة" . أما فى حياته فلم يخرج كتاباً متكاملاً فى هذا الموضوع.

التصديق بما جاء به

محمد ﷺ

بعد أن ثبتت نبوته، عليه السلام، بالدليل القاطع ، على مابينا، وأنه انما يخبر عن الله تعالى ، فلاريب أنه يجب تصديق خبره، والايمان بما جاء به، ونعنى بما جاء به ماصرح به فى الكتاب العزيز، وماتواتر الخبر به تواترا صحيحاً مستوفياً لشرائطه، وهو : " ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس".

ومن ذلك أحوال مابعد الموت، من بعث، ونعيم فى جنة وعذاب فى نار، وحساب على حسنات وسيئات، وغير ذلك مما هو معروف. ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ماهو صريح فى الخبر، ولاتجوز الزيادة على ماهو قطعى بظنى. وشرط صحة الاعتقاد أن لايكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين، فان ورد مايوهم ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر، أما بتسليم لله فى العلم بمعناه ، من اعتقاد أن الظاهر غير مراد، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة.

أما أخبار الآحاد فإنه يجب الإيمان بماورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها، أما من لم يبلغه الخبر، أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته ، وهو ليس من المتواتر، فلايطعن فى إيمانه عدم التصديق بــه . والأصــل فى جميــع ذلــك: أن مــن أنكر شيئا وهو يعــلم أن النبى، ﷺ حدث به، أو قرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها، ويلحق به من أهمل فى العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة، وهو مافى الكتاب وقليل من السنة فى العمل.

من اعتقد بالكتاب العزيز، وبما فيه من الشرائع العملية. وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ماهى فى ظاهر القول، وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب على الاعمال والعقائد، بحيث لاينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد، ولاينقص شيئا من بناء الشريعة فى التكليف، كان مؤمنا حقا (١٢٢) ، وان كان لايصح اتخاذه قدوة فى تأويله، فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها الى ماتبلغه طاقة العامة لا إلى ماتشتهيه عقول الخاصة. والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الاخر بلا قيد فى ذلك الّا احترام ماجاء على ألسنة الرسل.

بقيت علينا مسألتان، وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام ، وما هما منه إلّا حيث يكون غيرهما مّا أجملنا القول فيه:

الأول: جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة.

والأخرى: جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات، من غير الأنبياء ، من الأولياء والصديقين.

---

(١٢٢) هذه المسألة من المسائل التي أثارت جدلا قديما بين المفكرين ،فالغزالي مثلا يرى تكفير من ينكرالاوصاف الحسية لمابعد الموت وللمعاد بوجه خاص ، بماقي ذلك حشر الاجساد والعقوبات الحسية ؛ بينمايرى ابن رشد أن هذه الاوصاف الحسية «تمثيل» يهدف إلى الاقناع للجمهور ، لان «تمثيل المعاد لهم بالامور الجسمانية أفضل من تمثيله بالامور الروحانية» .. والاستاذ الامام هنا يميل إلى رأي ابن رشد في هذا الموضوع . انظر (فيصل التفرقة بن الاسلام والزندقة) للغزالي ص٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م و(تهافت التهافت) لابن رشد ص١٢٤- طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م .

رؤية الله

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لامجال معه للتنازع ، فان القائلين بجواز الرؤية من هل التنزيه متفقون على أن الرؤية لاتكون على المعهود من رؤية البصر المعروفه لنا فى مجرى العادة، بل هى رؤية لاكيف فيها ولاتحديد، ومثلها لايكون إلّا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا، وهو مالايمكننا معرفته، وان كنا نصدق بوقوعه متي صح الخبر، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها، فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع الى قول خصومهم (١٢٣). ولكن منى الاسلام بقوم يحبون الخلاف ، والله فوق مايظنون.

الكرامات

أما الثانية، فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحاق الاسفرايينى، من أكابر أصحاب أبى الحسن الأشعرى ، وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصرى (١٢٤) فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة.

---

(١٢٣) أنظر في رأي المعتزلة حول هذه القضية بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) ص٥٥-٥٧ .(ومنه تعلم أن هذا اللقاء بين الفريقين الذي يتحدث عنه الاستاذ الامام لم يحدث ،ويصعب أن يحدث)

(١٢٤) هو عبد الله الحسين بن علي البصري «٣٥٨-٣٩٩هـ» كان تلميذا لابى هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي ، وهو معدود في الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة . أنظر المنية والامل ص٦٢-٦٦.

واستدل الذاهبون الى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم الكتاب الواردة في خبر بلقيس، من احضاره عرشها قبل ارتداد الطرف [١٢٥] ، وقصة مريم عليها السلام، وحضور الرزق عندها [١٢٦] ، وقصة أصحاب الكهف [١٢٧].

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات ، وأولوا ما جاء فى الآيات.

أما أن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح، لأن المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ، ولابد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها، وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلادليل فيه، لأن مافى قصة مريم وآصف [١٢٨] قد يكون بتخصيص من الله تعالى ، لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولاعلم لنا بما أكتنف تلك الوقائع من شئون الله في أنبياء ذلك العهد إلّا قليلاً ، وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته فى خلقه ، وذكرنا بها - لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز.

---

(١٢٥) الاشارة إلى قوله تعالى (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) الاية «النمل:٤٠» .

(١٢٦) الاشارة إلي قوله تعالى (كلما دخل عليهازكريا المحراب وجد عندها رزقا .قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) . «آل عمران:٣٧» .

(١٢٧) الاشارة إلي قصة أصحاب الكهف ونومهم الطويل ثم يقظتهم . أنظر سورة الكهف (الآيات٩ ومابعدها) .

(١٢٨) أي زكريا .

فبقى البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقاتها بالكون الكبير، وفى مكان الأعمال الصالحة، وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الإلهية ، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر (١٢٩) .

أما مجرد الجواز العقلى ، وان صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية ، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء، وانما الذى يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لايجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة، أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى كان، ولايكون بانكاره هذا مخالفا لشىء من أصول الدين، ولا مائلا عن سنة صحيحة، ولا منحرفا عن الطراط المستقيم.

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام؟ حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأليا ويتفاخر فيها همم الأصفياء؟!!.. وهو مما يبرأ منه اللهّ ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون.

---

(١٢٩) هو التصوف .

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً، يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٣٠) .

وقد فسّر الكفرُ في هذه الآية بكفر النعمة ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ، فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ، وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً، وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً، وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ

---

(١٣٠) النور: ٥٥.

عَلَيْهِ لِبداً، قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً، قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكَ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً، قُلْ إِنِّى لن يُجيرَنِى مِنَ اللَّهِ أحد وَلَنْ أَجِد مِنْ دُونِه مُلْتَحَداً إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِه وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسولَه فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً، قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلَ لَهُ رَبِّى أَمَداً ، عالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِه أَحَداً، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسلُك مِنْ بَيْنَ يَدَيْه وَمِنْ خَلْفِه رَصداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاط بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُل شَىْءٍ عَدَداً ﴾(١٣١) .

صَدَقَ اللَّهُ العظيم، .وبَلَّغَ رسولهُ الكريم وَخسىء الشيطانُ الرجيم، وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم.

---

(١٣١)الجن :١٢ـ ٢٨.

مصادر التحقيق

ابن حجر العسقلانى : (تهذيب التهذيب) طبعة حيدر أبادر سنة ١٣٢٥هـ

ابن رشد (أبو الوليد): (تهافت التهافت) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م

ابن قتيبة: (المعارف) تحقيق: د. ثروت عكاشة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م.

ابن المرتضى: (باب ذكر المعتزلة- من كتاب المنية والامل) تحقيق : ارنولد. طبعه الهندسة ١٣١٦هـ .

امين الخولى : (صلة الاسلام باصلاح المسيحية) طبعة القاهرة ١٩٣٥م.

الحسن البصرى: (رسالة فى القدر) منشوره فى كتاب (رسائل العدل والتوحيد) دراسة وتحقيق محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م

السبكى : (طبقات الشافعية الكبرى) طبعة القاهرة- الأولى .

طه حسين (دكتور) : (الفتنة الكبرى) طبعة القاهرة ١٩٧٠م.

عبد الجبار بن أحمد: (المغني فى أبواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة.

الغزالي(ابو حامد): (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

فان فلوتن: (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية) ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، محمد ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

محمد عبده (الاستاذ الامام): (الاعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

محمد عمارة (دكتور): (المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشيد) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.

(المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(نظرة جديدة الى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

(الاسلام والمرأة فى رأى الامام محمد عبده) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

محمد فؤاد عبد الباقى: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب. القاهرة.

مراد وهبة (دكتور)

(وآخرين) : (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(دائرة المعارف الاسلامية) طبعة القاهرة - العربية - الأولى

الفهرس

طبع بالمركز المصرى العربى ت : ٥٣٥٦٠٧

رسالة التوحيد

.. الله والانسان والرسالة والنبوة وعقائد الاسلام ..

إن كتابا يكون هذا موضوعه لهو على جانب عظيم من الخطر والأهمية .. ، فهذه الرسالة هي واحدة من أهم نصوص الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أبرز أعلام مدرسة التجديد الديني في عصرنا الحديث ..

في هذه الرسالة تبدو الروابط بين " العقائد " وبين " وظائفها " في واقع الإنسان ..

وفي هذه الرسالة يظهر الإمام بريئا من تلك الكهانة التي جعلت الدين حرفة يحترفها قوم انتزعوا لأنفسهم سلطان الله ..

وفي هذه الرسالة تتجلى نصرة الإسلام كي يهزم التقليد الذي قتل روح الريادة والإبداع في الأمة ..

